الفصل الرابع

التاريخ الثقافي للعصر الحجري الحديث

العصر الحجري الحديث هو عصر «الثورة الإنتاجية الأولى» في التاريخ البشري، وهو المرحلة الاقتصادية المهمة التي تقع بين نهاية حياة الصيد وبداية اقتصاد المعدن. ففي هذا العصر ظهرت الزراعة، وتم استئناس الحيوان، وأصبح الإنسان لأول مرة منتجاً للطعام بعد أن كان مجرد مستهلك له. وتعتبر هذه الخطوة أول ثورة كبرى في حياة الإنسان؛ إذ نقلته من حياة الظعن والارتحال وراء فريسة يقتنصها أو حيوان يتتبع أثره أو بحثاً عن ثمار يلتقطها، إلى حياة الاستقرار في قرى صغيرة بجانب قطعة أرض اختار لها نباتات معيّنة يزرعها ويرعاها حتى تثمر، أو إلى حياة بدوية منظمة يرعى فيها حيواناً معيناً أو عدة حيوانات اختارها من المملكة الحيوانية استأنسها ورباها[1].

ومن البداهة أن ثورة العصر الحجري الحديث كانت عملية معقدة في الواقع واستغرقت قروناً عديدة. ومن العبث أن نتصور كيف جرى ذلك الانتقال لعدم توافر أية أدلة أثرية على الإطلاق، ولا نعرف إن كانت الزراعة قد بدأت قبل تربية القطعان أم العكس هو الصحيح[2]. فعدة قبائل بدائية معاصرة تزرع بعض المزروعات ولكنها لا تربي الحيوانات لأكل لحومها، وإلى هذا الحد يبدو أن التصور الأول هو الأكثر احتمالاً. إن تجمعات العصر الحجري الوسيط كانت تبدو أقل بداوة من تجمعات

---

[1] د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري: الجغرافيا التاريخية، ص 255.

[2] جوردن تشايلد: العصر الحجري الجديد، ضمن: الإنسان والحضارة والمجتمع، مرجع سابق، ص 184.

obeikandl.com

العصر الحجري القديم، وكان أفرادها يميلون نحو الاستقرار بانتظام، أو على الأقل، لفصل من العام، حيثما يتوقعون محصولاً جيداً من تلك الأغذية. وفي معظم المخيمات الأوروبية على الأقل، نجد عظام الكلاب التي كانت ما تزال تشبه الذئاب أو أبناء آوى. ولربما كانت أسلاف الكلاب الحالية توثق صلاتها بالرجال، بل صارت تساعدهم في صيدهم مقابل ما يلقيه الصيادون لها من فضلات. ولا بد أن الكلب قد كان مفيداً جداً، وبشكل خاص في ذلك النوع الجديد من المطاردة الذي خلقته الطبيعة فيما بعد الجليديات. فبعد أن غزت التوندرا اختفت أسراب كبيرة من قطعان الحيوانات التي كانت تتصيدها قبائل الحجري القديم وتستفيد منها. وكان على جماعات الحجري الوسيط أن تتصيد بدلاً عنها حيوانات منفردة كالغزال الأحمر البري، وأنثاه، والثيران المتوحشة، والخنازير البرية، وطرائد أخرى تعيش وحيدة بين الأدغال. وفي كل أنواع هذه المطاردات كان الكلب عنصراً مفيداً كما لا يزال حتى اليوم[1].

كانت نهاية عصر البليستوسين الجليدية إيذاناً بحدوث تغيّرات كبرى في الظروف السائدة في معظم أنحاء العالم. فقد أدى ثراء ثقافة العصر الحجري القديم والوسيط، وربما كذلك التطور البيولوجي للإنسان الحديث وتحوله نحو مزيد من القدرة على التكيف إلى ظهور عديد من مظاهر التكيف الثقافي المحلي والمتخصص، مع اقتراب العصر الحجري القديم والوسيط من نهايته. وأخيراً بدأ الإنسان - في أماكن قليلة - يجرب زراعة النباتات، وهكذا أصبح الإنسان قادراً على أن ينتج طعامه بنفسه.

ونحن نعلم الآن أن هناك نباتات عديدة تم استزراعها وحيوانات متنوعة تم استئناسها في عدد من المناطق المتباعدة جداً من هذا العالم وذلك أثناء الفترة الزمنية نفسها (أي خلال مدى زمني يبلغ 2000 أو 3000 سنة وتلك فترة تمثل لحظة في تاريخ الثقافة). وكل ما نستطيع قوله اليوم هو أنه منذ فترة تتراوح بين 7000 و10.000 سنة تقريباً، بدأ الناس في كثير من مناطق العالم تجارب أدت - منذ وقت طويل - إلى استزراع معظم النباتات التي نزرعها الآن. كذلك يبدو من المحتمل - استناداً إلى

---

[1] المرجع سابق، ص 179.

العلاقة الوثيقة بين النساء وجمع الطعام في معظم الجماعات - أن النساء كن أول جامعي الطعام، وهن أول من اكتشف زراعة البذور.

ولقد ساد، لسنوات عديدة، اعتقاد مؤداه أن المراكز الوحيدة لاستزراع النباتات هي مصر وبعض المناطق القريبة منها، وجنوب شرق آسيا، ووسط أمريكا (المكسيك وأمريكا الوسطى). كذلك ساد اعتقاد عام بأن الري في مناطق الأراضي القاحلة هو أول من زود الإنسان الأول بفكرة بذر البذور. ولقد ذهب البعض إلى أن الزراعة قد نشأت أولاً في مصر لأن وادي النيل كان يشكل مثالاً رائعاً للفيضان الطبيعي، وبالتالي ري مناطق واسعة. ومن بين النباتات التي تم استزراعها في مصر منذ فترة طويلة لا نجد نباتات برية. ولقد كان من نتائج الدراسة التي أجراها علماء النباتات والوراثة أن الاستزراع قد تم في مناطق كثيرة، وبالنسبة لنباتات عديدة. وفضلاً عن ذلك فإنه من الأمور التي تبدو مؤكدة أن الاستزراع قد تم أولاً في الواحات الصحراوية كوادي النيل في مصر، حيث تمثل الفيضانات الموسمية نوعاً من الري الطبيعي. ومن المحتمل أن يكون فن الري قد تطور أولاً في الأودية الجبلية. ويكاد يكون من الأمور المقررة الآن أن مناطق الاستزراع الأساسية هي: مرتفعات أثيوبيا، والأناضول، وإيران، وأفغانستان، ثم منطقة أقل توطيناً للنبات تقع في جنوب أو جنوب شرق آسيا، وأخيراً مناطق العالم الجديد[1].

كانت الخطوات التي سلكها الإنسان نحو سيطرته على البيئة تدريجية جداً، ولكن تراكمت آثارها وكان لها نتائجها، ونستطيع أن نذكر بعض هذه الخطوات التي تعتبر انقلابية إذا قارناها بالمقاييس التي شرحناها سابقاً. فالثورة الأولى التي غيَّرت اقتصاد الإنسان، مكنته من ضبط مورد طعامه. وقد بدأ الإنسان في الزراعة وتحسين أنواع النباتات سواء أكانت من الحشائش أو الجذور أو الأشجار، بالاختيار. كما نجح في ترويض بعض أنواع معينة من الحيوان وجعلها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياته حتى استؤنست، وذلك في مقابل ما كان في استطاعته أن يقدمه لها من غذاء ومن حماية، وذلك نتيجة بعد نظره. وترتبط هاتان الخطوتان إحداهما بالأخرى ويرى بعض الثقات أن الزراعة في كل مكان سبقت تربية الحيوان.

---

[1] رالف بيلز وهاري هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ص 323-324.

كان القمح والشعير هما أساس غذاء شعوب المدنيات التي ساهمت بأكبر نصيب في بناء تراثنا الحضاري الذي نتمتع به الآن. ولهذين النوعين من الحبوب فوائد ممتازة؛ فهما يمدان الإنسان بطعام له قيمة غذائية مرتفعة، ومن السهل تخزين حبوبهما، ومحصولهما وافر، كما أنهما لا يحتاجان إلى مجهود يستغرق وقت الفلاح كله في زراعتهما. ولا ريب في أن إعداد الأرض وحرثها وبذرها يحتاج إلى مجهود كبير، بالإضافة إلى رعاية الحقل وتنظيفه من الحشائش الطفيلية، وحراسته في موسم النضج، ثم ما يحتاجه موسم الحصاد من عمل وتضامن من المجتمع كله.

استؤنس كل من القمح والشعير من أنواع برية من الحشائش، ولكن عملية اختيار أفضل نبات ينتج أحسن حبوب، وعملية تهجين أنواع الحبوب المختلفة بقصد أو من دون قصد، قد انتهت في النهاية إلى إنتاج أنواع القمح والشعير، تحمل من السنابل والحبوب ما لا يحمله أي عشب بري. ويعرف الآن نوعان من الحشائش يعتبران من أسلاف القمح هما: الدنكل Dinkel والإمر Wild emmer وكل منهما ينمو نمواً برياً في مناطق جبلية. أما الأول فينمو في جبال البلقان وجبال القرم وآسيا الصغرى والقوقاز، وأما الثاني فينمو في مرتفعات فلسطين وربما في إيران أيضاً[1].

أما كيف بدأت الزراعة، وهل بدأت في مركز واحد أو أكثر، فمسائل لم يبت فيها بعد. إذ إنه قد عثر حديثاً على مناجل حجرية في كهوف فلسطين التي كانت تتخذ مساكن، مصحوبة بآلات خاصة بحرفة جمع الطعام، مما يدل على أنها ترجع إلى مجتمع كان في مرحلة انتقال بين الزراعة وجمع الطعام.

إن فلسطين وما جاورها كانت الموطن الأصلي لزراعة الحبوب، ولا ريب في أن اقتصاد إنتاج الطعام كانت له آثار بعيدة المدى ظهرت في تزايد عدد السكان، وفي ظهور القرى، ثم المدن.

وفي كل محلات الزراعة وإنتاج الطعام التي درسها الأثريون في أوروبا وجنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، كانت الحرفة الأساسية هي الزراعة المختلطة، فإلى جانب زراعة الحبوب كان يربى الحيوان. وهذا الاقتصاد هو ما يميِّز العصر الحجري الحديث أينما وجدنا آثاره. وكانت أنواع الحيوان الذي تستخدم منتجاته في الطعام

---

[1] جوردن تشايلد: تقدم الإنسانية، ترجمة محمد السيد غلاب، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997، ص 65-66.

محدودة وهي: الماشية ذات القرون والضأن والماعز والخنازير. وربما أضيفت أنواع أخرى قليلة من أهمها الدواجن إلى الزراعة في فترات متعاقبة في بلاد أخرى.

ومن عادة الصيادين اليوم - ولا ريب في أنهم كانوا أيضاً كذلك في عصر ما قبل التاريخ - أن يروضوا صغار الحيوانات البرية لأغراض متعلقة بالطقوس الدينية، أو لمجرد التسلية. ولا بد أن ظروف الجفاف أتاحت للإنسان الفرصة كي يربط إليه صغار الوحوش، وبقايا قطعان بأكملها، من جميع الأعمار من الذكور والإناث. فإذا تحقق من أن هذه الحيوانات ستكون بديلاً لحيوانات الصيد الأخرى، لكان في أول الطريق نحو استئناسها.

ثم كان عليه أن يضبط مورد اللحم هذا، ويميِّز بين مصادره. وكان عليه أن يبدأ عملية انتخاب معيّنة يبقي بها على الحيوانات الأليفة. ولكن كان عليه أيضاً أن يبدأ في استغلال الفرصة المتاحة له لدراسة حياة الحيوان وهو قريب منه. ومن ثمة يتعلّم كيف يتم التكاثر، ويتعلّم الكثير من حاجة الحيوان للطعام والشراب، وكان عليه أن يسلك على ضوء معلوماته. فبدلاً من طرد الحيوانات عن حقله ومحصوله، عليه أن يسوقها إلى حيث المرعى المناسب، وأن يحميها من الحيوانات المفترسة، ثم تستطيع أن تتخيل كيف يمكن أن يتحول قطيع من الحيوانات العاشبة - مع مرور الزمن - إلى حيوانات أليفة، بل حيوانات تعتمد تماماً على الإنسان.

وهذه نتيجة لا تحدث إلا إذا استمرت هذه الظروف المناخية الجافة فترة كاملة من الزمن كان أثناءها الحيوان العاشب يحوم حول محلات الإنسان. ولا ريب في أن الإنسان قد أجرى تجارب عديدة لاستئناس أنواع مختلفة من الحيوان. فقد كان المصريون القدماء يستأنسون التياتل والغزلان قرابة 3000 ق.م. ولكن هذه أضيفت إلى غيرها من التجارب الفاشلة. ولحسن الحظ كانت الماشية والضأن والماعز والخنازير ضمن الحيوانات البرية التي تركت في المناطق التي أصابها الجفاف في آسيا، فهذه أصبحت مرتبطة تماماً بالإنسان، وعلى أتم استعداد لأن تتبعه.

وقد كان الحيوان الأليف في بادئ الأمر أو المستأنس مجرد مصدر للحم، أي حيوان صيد سهل. ولم تكتشف فوائده الأخرى إلا فيما بعد، إذ ربما لاحظ المزارعون أن الحقول التي ترعاها الحيوانات تأتي بمحصول أوفر عادة. وهذا في النهاية انتهى بهم إلى معرفة قيمة روث البهائم كسماد. أما معرفة حلب لبن الحيوان،

فربما أتت بعد أن درسها الإنسان عن كثب وشاهد صغارها وهي ترضع أثداءها. ثم أصبح اللبن عنصراً ثانياً في طعام الإنسان، يمكن أن يحصل عليه دون حاجة إلى قتل الحيوان، أي من دون أي يمس رأسماله. وهنا يبدأ مرة أخرى في اختيار الأنواع التي تمده بلبن أوفر. إذ إنه سيبقي على أفراد إناث الحيوان ذات اللبن الوفير. ثم بعد ذلك عرف قيمة الضأن، وشعر الماعز، والصوف نتيجة كاملة لاختيار الأفراد ذات الصوف الغزير، والإبقاء عليها وتهجينها.

أما تسخير الدواب لحمل الأثقال وجر العجلات فهو أمر جديد، وكان إحدى خطوات الإنسانية نحو الثورة التالية في تاريخها الاقتصادي.

والحياة الرعوية الخالصة شائعة في كثير من شعوب العالم ومن أحسن أمثلتها (البدو) في بلاد العرب، والقبائل المغولية في آسيا. ولا ينتظر من الرعاة أن يتركوا آثاراً ذات قيمة يعرف منها الأثريون تاريخهم؛ فهم يفضلون استخدام السلال والقِرَبْ بدلاً من أوعية الفخار، ويسكنون الخيام بدلاً من الأكواخ أو المنازل. ومهما يكن من أصل تربية الحيوان فإنه أعطى الإنسان القدرة على التحكم في إنتاج الطعام مثل الزراعة تماماً.

ويجب أن نذكر أن إنتاج الطعام لم يحل محل الصيد وجمع الطعام مرة واحدة. فما يزال صيد السمك في الوقت الحاضر صناعة كبيرة تساهم في طعامنا رغم أن الصيد الآخر أصبح مجرد رياضة المترفين. وكان منتجو الطعام - في أول الأمر - يشتغلون إلى جانب الزراعة بصيد الدواجن البرية والسمك وجمع الثمار والمحار. وبدأ القمح واللبن يدخل في طعام الجماعة كمجرد عامل إضافي إلى جانب السمك والتوت والبندق وما إليها. وربما كانت الزراعة في بادئ الأمر مجرد عمل إضافي للنساء بينما أزواجهن يشتغلون جادين بالصيد المرهق، ولم تأخذ الزراعة مرتبة مستقلة وتصبح حرفة رئيسية إلا بعد زمن طويل. إذ عندما كشف الأثريون آثار الزراعة في مصر وإيران، وجدوا أن آلات الصيد تقف على قدم المساواة مع أدوات الزراعة أو آثار تربية الحيوان. ولم تقل أهمية الصيد إلا بالتدريج. وبعد الثورة الإنسانية الثانية أي (نشأة المدن)، أصبح الصيد مجرد أحد الطقوس، وأصبح صيد السمك وظيفة تتخصص فيها بعض الجماعات داخل الجماعة الكبيرة، أو تقوم بها مجتمعات مستقلة، تعتمد اقتصادياً على المجتمع الزراعي.

إن إنتاج الطعام في أبسط صورة يعطي الفرصة أو الحافز للمجتمع في أن يكدس الفائض منه. إذ لا بد من الإبقاء على المحصول، وادخاره بعد أن يحصد. ولا بد من حفظ الحبوب وتخزينها والسحب منها حتى تتم زراعة محصول جديدة وحصاده، أي أثناء عام كامل أو حجز جزء منه للبذر، وعملية التخزين هذه سهلة ولكنها تعني بعد نظر وحسن تدبير من ناحية وإعداد الصوامع والمخازن من ناحية أخرى. وهذه المخازن لا تقل أهمية عن منازل السكنى نفسها، إن لم تفقها. وقد وجد في إحدى قرى العصر الحجري الحديث في الفيوم بمصر أقدم الصوامع من نوعها وهي عبارة عن حفرة مبطنة بالقش والخوص المجدول، وهذه أفضل المخازن التي عثر عليها وظلت باقية حتى الآن. وكذلك ينبغي ألا تذبح المواشي التي أنفق عليها أثناء الفصل الجاف دون تمييز، إذ يجب أن يُبقى على عجول البقر الصغيرة والشياه، لكي تمد الجماعة باللبن ولكي تعمل على ازدياد عدد القطيع. وما إن يقتنع الناس بهذه الآراء حتى تصبح عملية إنتاج الطعام أسهل وأكثر أمناً من عملية الصيد أو جمع الثمار. فلا يلبث إنتاج الحقول والقطعان أن يزيد على حاجة الجماعة، وتخزين الحبوب والإبقاء على مصدر اللحم حياً، أسهل بكثير - ولاسيما في الأقاليم الجافة - من حفظ لحوم الحيوانات المقتولة. إن تخزين الفائض سيساعد على مجابهة سني القحط أو قلة المحصول، وستنفع في إطعام عدد متزايد من السكان. وربما كانت في النهاية أحد عناصر تجارة بدائية وتمهد الطريق لثورة ثانية، بالإضافة إلى أن هذا الاقتصاد يكفي نفسه بنفسه تماماً. فالجماعة التي تشتغل بإنتاج الطعام البسيط لا تحتاج مطلقاً لأن تقايض شيئاً في مقابل شيء آخر من أية جماعة أخرى؛ فهي تنتج الطعام الذي تحتاجه وتجمعه، وتعتمد على المواد الخام التي في متناول يدها لصنع حاجاتها البسيطة. ويقوم أفرادها بصنع ما يحتاجون إليه من أدوات وأوعية وأسلحة في منازلهم. هذا الاقتصاد الزراعي والرعوي البسيط الذي وصفناه، إنما هو مجرد وصف مجرد، وقد قمنا برسم هذه الصورة من معلومات أمدنا بها علماء بوصف الأعراق البشرية Ethnographers عبر ملاحظاتهم لقرى المزراع البدائية ولمعسكرات البدو، ومن معلومات جمعها الأثريون وربما لم تحصل أية صورة من هذه الصور كما رسمناها بالضبط في أي مكان. ولكن علم الآثار وحده يستطيع أن يقدم الأدلة على أن اقتصاد «حجري حديث» قد نشأ وانتشر في العالم في

مرحلة من مراحل تقدم الإنسانية نحو المدنية الحديثة. وكل ما يستطيع أن يقوم به علم الآثار الآن، هو أن يعزل المرحلة الوقتية مما كان في الواقع عملية متصلة.

وقد افترضنا أن إنتاج الطعام نشأ في عدة أماكن في أوقات متقاربة. ولكن هذا التقارب الزمني أو هذه الآنيّة لا يمكن إثباتها في علم الآثار، حتى في محلات متقاربة تقارباً شديداً، مثل الآثار في مصر الوسطى والفيوم والدلتا. ومن الصعب أن ننشئ توقيتاً متوازياً في الزمن بين كل من مصر وسورية مثلاً. ولا يمكن مطلقاً أن نفترض مثل هذا التوازي بين مصر وشمال أوروبا. إذ إن أقدم مثال لمجتمع منتج للطعام في بريطانيا أو بلجيكا أحدث من مثيله في مصر بما يقرب من ثلاثين قرناً. وقد ذكرنا عن قصد بعض المجتمعات البدائية المعاصرة التي ما تزال في مرحلة متأخرة من إنتاج الطعام.

لقد كشف علم الآثار اللثام عن مجتمعات كانت تعيش على المستوى الاقتصادي نفسه الذي وصفناه في (تازا) بوادي النيل على الضفة الغربية للدلتا، وعلى شواطئ بحيرة الفيوم، وفي النطاق المطير في شمال سورية بين حلب والموصل، وعلى منحدرات الهضبة الإيرانية وذلك منذ 7000 عام تقريباً. وبعد ذلك نجد الاقتصاد نفسه في كريت وآسيا الصغرى، ثم في وقت متأخر عن هذا، وجد في إسبانيا وفي نطاق التربة السوداء في أوكرانيا، وحول وادي الدانوب الأسفل، وفي سهول المجر، ثم بعد ذلك في وسط أوروبا كلها نحو 2000 ق.م. ولقد كانت قبائل (الماوري) على المستوى الاقتصادي نفسه عندما رست سفن الكابتن كوك على شواطئ جزر نيوزيلندا قرب نهاية القرن الثامن عشر[1].

كان الشرق الأوسط، فيما نعلم الآن، الموطن الأصلي للزراعة وتربية الحيوانات في العصر الحجري الحديث. وهذه المعرفة تستند إلى اكتشاف آثار نباتات وحيوانات في مواقع أثرية توجد، على العموم، في الشرق الأوسط. وهذه الآثار هي حصيلة التنقيب في نحو عشرين موقعاً أثرياً، بين كهوف وتلال، في تركيا وسورية ولبنان وفلسطين والعراق وتركستان وأفغانستان وباكستان. ومن هذه المواد الأثرية نستمد معرفتنا الحقيقية الوحيدة عن الخطوة العظيمة الأولى التي خطاها الإنسان بعد سيطرته على النار. وبعض هذه المواقع مثل (جبيل) في لبنان، هي في

---

[1] المرجع السابق، ص 74-77.

الحقيقة مواقع مدن، ولكن إصرار المنقبين على التحري هو الذي أوصلهم إلى الأسس التي تعود للعصر الحجري الحديث. والمواقع الأخرى مثل (تبة حصار) في إيران، هي في الأصل روابٍ سكنية في العصر الحجري الحديث وفوق سطوحها المرتفعة مخلفات من العصر البرونزي والعصور التالية، ويظهر قليل من هذه المواقع مثل (قلعة جرمو) في شمالي العراق الذي نقب فيه (روبرت بريدوود) وكهف (بلت) الذي نقب فيه (كارلتون كون)، استمراراً من العصر الحجري الوسيط إلى أقدم عهود العصر الحجري الحديث وإلى ما بعدها من العصور. ويحتوي أحد هذه المواقع (في جبل الكرمل) التي ألقت أضواء ساطعة على تطور الإنسان، على خليط عجيب من المواد التي لولاها لكانت الآثار تشير إلى حضارة العصر الحجري الوسيط الخالصة فقط. ومن تلك المواد شفرات مناجل من الصوان، ويعني وجود المناجل الصوانية شيئاً واحداً فقط ألا وهو زراعة الحبوب التي لا تنفلق سنابلها. وقد أخطأ معظم علماء الآثار بسبب عدم إدراكهم أن الحبوب البرية لا تحصد سنابلها وإنما تضرب بالعصي وتجمع غلتها بالسلال، فظنوا أن اجتماع أدوات العصر الحجري الوسيط وعظام الحيوانات والمناجل الصوانية يعني حصاد الحبوب البرية. ومعظم الظن أننا لن نجد شواهد على بدء زراعة الحبوب ذوات السنابل المنفلقة لأسباب بينة الوضوح. ولنا أن نعتقد، كلما وجدنا المناجل الصوانية إما أن الحبوب كانت تزرع منذ زمن في تلك الناحية، أو أن زراعتها قد نقلت حديثاً إليها من مكان آخر كانت تزرع فيه فيما مضى.

وقضت الضرورة بوجود أدوات خاصة لحصاد الحبوب وتحويلها إلى طحين. وإن أقدم أدوات الحصاد الباقية حتى الآن كانت عبارة عن قطع خشبية أو عظمية مستقيمة ومزودة بصف منشاري قصير من الصوان، ثم استخدم المنجل المقوس من الخشب أو من فك الحيوان مزوداً أيضاً بالصوان في نهايته. ويمكن طحن الحبوب بالمهراس وهراوته، ولكن كان الشائع أكثر في العالم القديم طحنها إما بواسطة حجر دائري بشكل الكعكة على صفيحة مقعّرة كالصحن، وإما بواسطة هراوة على شكل السجق تضرب على صفيحة مسطحة. وفي هذه الطريقة الثانية كانت تتحول الصفيحة بالنتيجة إلى شكل يقارب السرج، ولقد بقي هذا النوع من «المطاحن السرجية» هو الشكل الأمثل للمطاحن إلى حين ابتكار المطحنة اليدوية

الدوارة (الجاروشة) في منطقة من مناطق شرقي المتوسط قرابة عام 600 ق.م. (وحتى ذلك التاريخ، وبعده بزمن طويل في الواقع، بقي كل بيت يطحن دقيقه اليومي في مثل تلك المطاحن اليدوية كما يطحن بعضنا قهوته اليوم)[1].

ولقد كان على الإنسان أن يطهر الغابة لكي يستطيع أن يزرع الغلال في التربة الخصبة، الغنية اللينة، الممتدة بين أصول الأشجار. وكان يحتاج إلى زرائب يحفظ بها الحيوانات من الهرب، ويعصمها من هجمات الذئاب المفترسة.

وكان تطهير الغاب، وبناء الزريبة يحتاجان إلى أداة جيدة لقطع الخشب. وكانت تلك الأداة هي الفأس اليدوية المصقولة. وعندما امتلك الإنسان هذه الفأس بدأ حياة الفلاحة والرعي.

لقد تم غرز الصوان في نهايات الأوتاد الخشبية ليجعلوا لها أطرافاً أمضى يستفيدون منها في قطع الأشجار، وبعد ذلك زودوا مثل هذه الأداة بمقبض خشبي فتوصلوا إلى القدوم، وهكذا تم ابتكار شفرة القدوم الحجرية المسنونة وهي أداة إنتاجية أقوى وضعت تحت تصرف الإنسان. وتجدر الإشارة إلى أن كل أدوات النجارة الثقيلة كانت تستعمل في البداية بمثابة (قدم)، وإن النجارين المحليين في الباسيفيكي يفضلون اليوم استخدام القدم في أعمالهم بدلاً من الفؤوس[2].

إن حياة الفلاحة والرعي، وهي طريقة في الحياة ما زال معظم البشر عليها، وما زالت تؤلّف الأساس الذي يقوم عليه وجودنا ذاته. وكانت الحنطة، والشعير، والذرة، ولحم البقر، والحليب، والبقول، وصناعة الفخار، والحياكة، والصوف، والجعة، والنبيذ، تؤلف جزءاً من هذا النمط الحضاري الذي يُعرف بالمرحلة الحجرية الحديثة من الحضارة البشرية. ولعل أفضل الطرائق لإعطاء صورة حية عن بداية الحياة الزراعية هو دراسة بعض المواقع المعينة، وهي مواقع ما قبل الصناعة الفخارية، ويبدو أن أولى الجماعات التي قامت برعاية الحيوان في كهف بلت Belt Cave لم يكن لديهم أوان فخارية، بينما بدأت تظهر بعض قطع من الأواني في مرحلة متأخرة في جرمو Jarmo وأريحا Jericho.

---

[1] جوردن تشايلد: العصر الحجري الجديد، ضمن: الإنسان والحضارة والمجتمع، ص 189.

[2] المرجع نفسه، ص 181.

نقبت البعثة التي كان يرأسها كارلتون كون في سنتي 1941 و1951 في موقع أثري في شمالي إيران يسمى (كهف بلت) يحتوي على مراحل حضارية متعاقبة، فقاع المغارة الذي يرجع تاريخها إلى سنة 9530 ق.م يتكون من طبقة تعود إلى العصر الحجري الوسيط وتحتوي على عدد كبير من عظام الفقمة. وهذه شواهد على رطوبة المناخ في ذلك الزمن. وتلي قاع المغارة طبقة أخرى تعود إلى حضارة العصر الحجري الوسيط يرجع تاريخها إلى سنة 6630 ق.م وهي الفترة التي كان فيها الغزال الحيوان السائد. وتأتي بعدها طبقة تشير إلى بداية العصر الحجري الحديث ويعود تاريخها إلى سنة 5840 ق.م وقد وجدت فيها آثار الغنم والماعز الداجن، ولكن لم يعثر فيها على أدوات فخارية. ولا يُعرف فيما إذا كان الناس الذين سكنوا هذه المغارة قد زرعوا الحنطة والشعير أم لا. وعلى كل حال فإن أولئك الناس كانوا يربون الضأن والماعز، وبعد مدة من الزمن، قرابة سنة 5330 ق.م، كان أولئك الناس قد بدأوا يصنعون الفخار ويحصدون الحبوب ويربون الخنازير، كما أخذوا يربون البقر بعد مدة قصيرة[1]. أما موقع تل قلعة جرمو في شمالي العراق قرب كركوك، فقد كان مسكوناً قبل أن يعرف السكان استعمال المنجل الصواني أو الفخار، وهو يمثل انتقالاً من عادات الحياة في العصر الحجري الوسيط إلى عادات الحياة في العصر الحجري الحديث. وأقدم مادة وجدت فيه: قواقع حلزون يرجع تاريخها إلى سنة 4758 ق.م محسوباً بطريقة كربون 14، وهذا التاريخ سابق لصناعة الفخار.

عاش سكان قرية جرمو في قرى صغيرة ذات منازل متعددة الحجرات مصنوعة من الطين. وفي بعض الأحيان كانت تقام منازلهم على أساس من الحجارة، والأرضية من سقف النخل. وكانوا يزودون منازلهم بأفران للخبز وأحواض للغسيل، ورغم أنهم لم يتوصلوا لصناعة الفخار إلا أنهم شكلوا ونحتوا أوانٍ ممتازة من الصخور الناعمة ذات ألوان جميلة. وقد استخدموا أيضاً بعض الأحجار في صناعة بعض الحلي الخاصة كالعقود والأساور، وكان لديهم كل الأدوات المميّزة للعصر الحجري الحديث كالفأس الحجرية المصقولة وما شابهها كالمخارز، إلى جانب أدوات الزراعة الأخرى كالمنجل وكطواحين الحبوب الصغيرة. وهذه الأدوات تشير

---

[1] د. يسري الجوهري: مقالات في الجغرافيا التاريخية، مؤسسة شباب الجامعة - القاهرة 1990، ص 376-377.

إلى رابطة قوية بحضارة العصر الحجري الوسيط، وكانت أهم حاصلاتهم: القمح والشعير. أما بالنسبة لحيواناتهم فمعظم البقايا الحيوانية تنتمي إلى أنواع مستأنسة من الأغنام والثيران والخنازير والكلاب، غير أننا لا نستطيع أن نجزم أن جميع هذه الحيوانات قد استؤنست استئناساً كاملاً. ويرجع تاريخ قرية جرمو إلى 6500 ق.م[1].

أما محلة تل أريحا (Jericho) في فلسطين، فهي تعود إلى عصر ما قبل الصناعة الفخارية أيضاً. وقد استخدم أهل أريحا - كمزارعي جرمو - الأواني والأطباق المصنوعة من الأحجار والمأخوذة من صخور محلية ناعمة يمكنها أن تعطي وجهاً مصقولاً جميلاً للأواني. ومن المحتمل جداً أنه وجد لديهم بعض الأواني المصنوعة من الجلود والأخشاب. أما بالنسبة لآلاتهم فقد استعملوا الصوان أساساً إلى جانب الزجاج الطبيعي. هذا ويعتبر العدد الكبير من المكاشط والمناجل المسننة الأطراف بدقة والرحى التي عثر عليها هنا دليلاً على أهمية الزراعة. وقد اكتشف قليل من عظام الحيوانات المستأنسة كما وجد إلى جوار المعبد عدد من التماثيل الصلصالية للماعز والأغنام والخنازير التي توضح أنواع الأغنام المستخدمة هنا. ونسبة كبيرة من العظام التي عثر عليها كانت خاصة بالوعل وبعض الأنواع البرية الأخرى. وكل هذه البقايا إلى جانب رؤوس السهام كلها أدلة كافية لتبرهن على أنه رغم وجود الطابع المدني هنا إلا أن الصيد كان لا يزال يمثل مورداً اقتصادياً ثانوياً في أريحا.

عاش في هذه المحلة قرابة 3000 شخص في منازل مريحة في الوقت نفسه الذي كان فيه معاصروهم يعيشون في أكواخ صغيرة أو كهوف, وذلك لأن أريحا نمت إلى جانب واحة مهمة، إذ إن مورد المياه الدائم كان يروي الأراضي المزروعة بالحبوب كما يروي البساتين مما أدى إلى وجود حياة اجتماعية منظمة، كما هو الحال في صيد الحيوانات الذي اقتضى تعاوناً بين الأفراد وجمع شمل عدد أكبر من الصيادين، والذي أدى إلى اتساع نطاق الالتزامات الاجتماعية خارج حدود الأسرة أو القبيلة أثناء العصر الحجري القديم. كل ذلك يشبه تماماً مسائل ضبط الري التي تتطلب إحساساً جديداً بالتعاون واحترام القانون بين الجماعات المستقرة.

---

[1] هنري فرانكفورت: فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة: ميخائيل خوري، منشورات دار الحياة - بيروت، من دون تاريخ، ص 49-50.

بعد ذلك استطاع سكان أريحا أن يستخدموا الفخار. والفخار في بادئ الأمر كان ليناً نوعاً ما، وكان لونه بنياً محلّى في بعض الأحيان بخطوط وردية. وفي الوقت نفسه بدأ السكان في تخزين الحبوب في حفر طليت بالطوب اللبن. ومما هو جدير بالذكر أن كهف (البلت) وقرية (جرمو) ومحلة (أريحا) فصلت كل واحدة منها عن الأخرى، وذلك لأنها تمثل بعض الخطوات الأولى نحو ثورة العصر الحجري الحديث. ففي كهف البلت وجدت أدلة مبكرة لاستئناس الحيوان، أما أريحا فهي أقدم قرية مستقرة كشف عنها حتى الآن، ذلك بالإضافة إلى أنها تعتبر مثالاً مدهشاً لناحية أن الحياة الاجتماعية المنظمة قد استطاعت وبسرعة أن تستوعب الاقتصاد الزراعي الجديد الذي نشأ. ومن الصعب تتبع هذه الدراسة بإعطاء وصف عام لحضارة سكان هذه المناطق أثناء المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث، إذ يبدو أن لكل موطن طابعه المحلي الخاص، إذ إن كل جماعة لاءمت نفسها لظروف الحياة حينما أخذت بالزراعة وتربية الحيوان وبدأت في الاستقرار في قرى دائمة.

هذه بعض الأمثلة المحسوسة التي تدل على تعقد الانقلاب النيوليتيكي واتساع نتائجه والتطبيقات العملية المتباينة التي كان بالإمكان أن يؤدي إليها[1].

دعائم المجتمع الجديد المستقر

لقد ظهر بوضوح أن «الثورة الإنتاجية» كانت دعامتها الأساسية معرفة الزراعة وممارستها، واستئناس الحيوان واستغلاله، والارتباط بالأرض والانتفاع بمواردها وبناء المساكن، والإحساس بالجيرة والشعور بالمشاركة. فزراعة النباتات كان لها تأثير قوي في طريقة الحياة في العصر الحجري الحديث، إذ ربطت الإنسان بالأرض. إن الزراعة تتطلّب انتظار نمو المحاصيل ثم جنيها، ثم كانت المحافظة على النباتات والأرض الشيء الذي لا بد أن يضمن في المقام الأول.

وقد تطلّب هذا الاقتصاد تخصصاً في العمل والمهارات أكثر من تلك التي كانت موجودة في مجتمعات الصيد. وقد اتفق بصفة عامة بين الباحثين أن المرأة تبعاً لدورها القديم كجامعة للطعام والخضراوات كانت هي المسؤولة عن اختراع وتطور الزراعة. ويبدو أن الأرض ظلت تعد لفترة طويلة بواسطة العصي المعقوفة وأن المرأة

---

[1] جوردن تشايلد: ماذا حدث في التاريخ؟، ترجمة جورج حداد، القاهرة 1956، ص 48-51.

ظلت هي الفلاحة، وربما اخترعت المرأة أيضاً صناعة الأواني والنسيج حيث أبقت هذه الحرفة في يدها.

أما عن الرجال فكانت حرفتهم الرئيسية تربية الحيوانات، كما نلاحظ أن الرجال في المجتمعات التي بقي فيها الصيد مصدراً مهماً للطعام اشتغلوا في صناعة الفؤوس الحجرية والعصي المعقوفة وغيرها من الأدوات الثقيلة. ذلك بالإضافة إلى أن حرفة قطع الأخشاب والنجارة حيثما وجدت كانت من نصيب الرجل. ولا يوجد أي دليل في قرى العصر الحجري الحديث على وجود المتخصصين كل الوقت. إذ يبدو أن كل أسرة قد مارست بنفسها كل أنواع العمل والحرف وأن الرجال المحترفين المتفرغين طوال الوقت لم يظهروا إلا مع الاقتصاد الحضري، وربما وجد قليل من العمال المتخصصين خارج مجتمع القرية. على أي حال ولكي نأخذ صورة واقعية عن ماهية قرى العصر الحجري الحديث ودعائم الثورة الأولى لإنتاج الطعام سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية؛ علينا أن ندرس مقومات الحياة الجديدة بشيء من التفضيل. فبالإضافة إلى الزراعة وتدجين الحيوانات تم:

1- استئناس الحصان:

حيث أدخل رعاة الشرق الأدنى الحصان والسيف إلى غرب أوروبا منذ بداية الألف الثانية ق.م، ولذلك لا بد من افتراض أن استئناس الحصان قد تم قبل ذلك التاريخ. ومن المحتمل أن المكان الأول لاستئناس الحصان ارتبط بأوكرانيا والمناطق الشرقية من الإستبس الروسية والمنطقة المحيطة ببحيرة آرال، والتي تشمل سهول التركستان. وتظهر صورة الحصان على المنحوتات والنقوش المصرية ابتداءً من الأسرة الثامنة عشرة أي قرابة 1580 ق.م. ويبدو أنه دخل مصر مع الهكسوس، ففي بداية هذه الأسرة وإبان الحروب في سورية أحضرت أعداد كبيرة من الخيول إلى مصر ثم استخدمها المصريون في حروبهم أثناء القرون التي تلت دخولها إلى الدلتا[1].

2- القرية دعامة العصر الحجري الحديث:

كما استطاع إنسان العصر الحجري القديم أن يتلاءم مع بيئته فيتخذ من الكهوف والملاجئ الصخرية أو ما يشبه الأكواخ مأوى له، تمكن إنسان العصر

---

[1] د. يسري الجوهري و د. محمد السيد غلاب: الجغرافيا التاريخية، مرجع سابق، ص 283-284.

الحجري الحديث من تشييد المحلات العمرانية التي عرفها التاريخ كضرورة اقتضتها ظروف الحياة المستقرة المرتبطة بالأرض والزراعة ونمو الرابطة الأسرية والتعاون بين المجتمعات البشرية المتكتلة.

إن زيادة عدد السكان وشدة الحاجة إلى الاستقرار إلى جانب الأرض المزروعة، حيث لا يوجد مأوى طبيعي، بدأ الإنسان يضع اللبنات الأولى في صرح الفن المعماري ببناء منزل له ولأسرته. وقد بنيت هذه المنازل في معظم الأحيان من المواد المحلية التي اختلفت باختلاف المناطق التي وجدت بها، وقد أدّت هذه المواد دوراً كبيراً في تشكيل خطة وتركيب المبنى. فمثلاً استخدمت جذوع الأشجار الضخمة والحصر معاً مما أدى إلى وجود الخطة المستطيلة في تشييد المباني، بينما كان استخدام أي نسيج من ألياف الأشجار والعصي حول أعمدة خشبية قد ينتج عنه في معظم الأحيان أبنية مستديرة. هذا وقد استخدمت الأحجار والطوب النيئ وغيره من مشتقات الصلصال في بناء المنازل المستطيلة والمستديرة على السواء. على حين حفرت المنازل المحفورة في الأرض pit dwellings، وكان يتراوح شكلها بين الدائري والمستطيل نظراً لأنه كان من الصعب تحديد الشكل بدقة أثناء عملية الحفر، بسبب بدائية الآلات التي استخدمها الإنسان لتحقيق هذا الغرض، ولعل خير الأمثلة لتلك المنازل هذه تلك التي وجدت في قرية "يانج شو" Yangshao في الصين.

وقد كان المناخ عاملاً طبيعياً آخر إلى جانب المواد الطبيعية أثر بقوة في نظام تشييد المباني. ففي المناطق الحارة نشأت منازل بسيطة ليس فيها تعقيد سواء في تركيبها أو في نظام بنائها، بينما في المناطق المطيرة والتي تهب عليها العواصف في أوروبا وآسيا أقيمت المباني على أنظمة خاصة، حتى تستطيع أن تصمد أمام الأعاصير ولا تنهار أمام سيول الأمطار.

أما في المناطق الباردة فقد لجأ الإنسان إلى التعمق في أرضية منازله تحت مستوى سطح الأرض، وتغطية مدخل المنزل بما يشبه الشرفة وذلك حتى يدفئ منزله بقدر المستطاع. ولم يقتصر أثر المناخ في شكل المبنى فحسب، بل أدّت دوراً مهماً في اختيار المادة المستخدمة في البناء. ففي جنوب غرب آسيا والصين وإفريقيا أقبل الإنسان - في العصر الحجري الحديث - على استخدام الطوب المجفف تحت أشعة الشمس، وذلك نظراً لسهولة صنعه تحت الظروف المناخية في تلك المناطق، بينما في

المناطق المعتدلة الباردة التي يسقط فيها المطر باستمرار لم تكن أشعة الشمس من القوة بحيث تمكن سكان هذه المنطقة من تجفيف الطوب أو الطين، كما فعل معاصروهم في جنوب غرب آسيا.

ولعل من أقدم منازل الفلاحين التي عثر عليها في هذه المنطقة هي تلك التي وجدت في أريحا وجرمو، والتي استخدم في بنائها الأحجار والطوب النيئ. ومنازل القرية الأولى تبدو متلاصقة بعضها مع بعض لدرجة أنها تذكرنا بالأحياء الفقيرة في المدن الحديثة، والتي قد يستخدم في بنائها في بعض الأحيان الطوب النيئ. وأقدم المباني في هذه المحلة تنتمي لفترة ما قبل الصناعة الفخارية حيث كانت ذات شكل دائري وسقفها بني في بعض الأحيان على هيئة قباب من الطوب الأخضر. وقد شابهت هذه المباني وهي متلاصقة مجمعاً لخلية كبيرة من النحل محاطة بسور وقلعة مستديرة، ومن ثمة فقد أطلق على هذه المحلة الأولى التي تمثل العصر الحجري الحديث في أريحا اسم: مدينة.

أما بالنسبة لمنازل أصحاب الحضارة الطاحونية وهي المحلة الثانية في أريحا فقد كانت مستطيلة الشكل ذات فناء كبير متين البناء، وكان تخطيطها أكثر تقدماً وأشد تعقيداً من منازل المحلة الأولى في أريحا. فقد احتوت منازلها على غرف للتخزين، وزينت حجرات الجلوس بها بدقة وإتقان حيث غلفت الحوائط بالجير كما طليت في بعض الأحيان، وصنعت إطارات الأبواب من الأخشاب، واستخدمت الستائر الجلدية فيها بدلاً من الأخشاب.

وإذا ما انتقلنا إلى قرية جرمو نجد منازل تتكون من حجرات مستطيلة عديدة بنيت من الطين فوق أساس من الحجارة وزودت بأفران للخبز وأحواض غاطسة في الأرض للغسيل، وهكذا تطورت المنازل في نظام بنائها من الخطة الدائرية إلى المستطيلة، غير أنه مع حضارة تل حسونة ظهر تطور آخر؛ إذ بنيت منازل القرية على نظام الخطة المستطيلة نفسه، غير أنه ألحق به لأول مرة فناء خال من المباني. وبالإضافة إلى ذلك فقد ترك فناء آخر لتخزين الحبوب حيث وضعت بعض القدور الغاطسة تحت مستوى سطح الأرض أو حفرت الحفر التي بطنت في بعض الأحيان بالجص. هذا وتعطي منازل أريحا وتل حسونة فكرة واضحة عن منازل القرى التي عاش فيها فلاحو العصر الحجري الحديث منذ ثمانية آلاف سنة مضت.

وفي الواقع إذا ما قارنا منازل القرى السابقة بالمواقع الأخرى للعصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا لا نجد اختلافاً كبيراً في نمط تكوين المنازل اللهم إلا في سيالك، إذ استخدم الفلاحون الأوائل البوص في إقامة منازلهم ولكن سرعان ما استخدموا الطوب النيئ. حينما استقر أصحاب حضارة تل العبيد في دلتا الفرات كان لديهم كميات كبيرة من قصب البوص استغلوها في صناعة دعائم وحوائط لمنازلهم، وذلك بعد أن حزموها على هيئة عصب كبيرة وغطوها بطبقة من الطين[1].

أما في شمال غرب الهند فإن نظام تشييد المباني المتبع هناك لا يختلف عن ذلك النظام المتبع في العراق وإيران؛ فهو استمرار لطريقة المباني نفسها، ولكن ليس لدينا ما يمكن على أساسه أن نعطي صورة واضحة لتخطيط المنازل في هذه الفترة.

أما بالنسبة لمصر حيث الدفء والأمطار القليلة والتربة المتجددة والفيضان السنوي، فلم يجد فلاحو ما قبل الأسرات حاجة لإقامة منازل ثابتة. فالمحلات التي قامت على شاطئ بحيرة الفيوم كانت أكواخها بسيطة. بحيث لم نجد من مخلفاتها شيئاً ينبئ عن وجودها سوى حفر لتخزين الغلال وحفر لإشعال النار والشيء نفسه يظهر في المنازل الأولى التي بنيت في مرمدة. غير أنه في فترة لاحقة تمكن أهل مرمدة من استخدام الحصر في بناء أكواخهم، بل عرفوا أيضاً كيف يشيدون أكواخاً طينية على شكل قباب. وفي البداري في مصر العليا عاش الفلاحون أيضاً في أكواخ من الحصير تشبه تلك التي ظهرت متأخرة في مرمدة.

أما بالنسبة لقارة أوروبا فنجد أن منازل مزارعي العصر الحجري الحديث اختلفت في نظام بنائها من منطقة لأخرى، تبعاً لطبيعة المنطقة والإمكانات الطبيعية الموجودة في كل منطقة؛ فقد استخدمت مثلاً الأحجار والأخشاب في معظم المباني التي شيدت على طول البحر المتوسط، على حين بنيت المنازل من الأخشاب فقط في المناطق الغابية.

ففي قبرص مثلاً كانت منازل قرية خيروكيتا مشابهة لمنازل أريحا، إذ كانت متلاصقة مع بعضها كخلية النحل مبنية من الطوب اللبن فوق أساس من الحجارة،

---

[1] المرجع السابق، ص 286-287.

وصنعت إطارات أبوابها من الأخشاب، وقد روعي في إقامتها أن تكون أرضيتها تحت مستوى سطح الأرض، ذلك بالإضافة إلى أنه وضع في وسطها عدد من المواقد الصلصالية. كما أن منازل العصر الحجري الحديث في قرى كريت كانت أيضاً عبارة عن مجموعة غير منتظمة من حجرات مستطيلة أقيمت فوق أساس حجري، في حين أقام فلاحو الجارسيل El Garcel منازلهم فوق التلال، وكانت ذات شكل بيضوي حفرت في الصخر.

وبالمثل نجد اختلافات بين قرى سكان فاردار - موارفا الذين حملوا التقاليد الآسيوية للبناء، فاستخدموا الحصير في أكواخهم وكذلك الطوب اللبن في بعض الأحيان.

أما منازل القرى الدانوبية التي نشأت في العصر الحجري الحديث، فيبدو أنها كانت على ثلاثة أنواع وهي:

1- المنازل ذات الشكل المستطيل الذي يبلغ طول الواحد منها قرابة 32 متراً. وتتميَّز منازل هذا النوع بأنها تنقسم إلى جزأين: الخلفي منها صنعت أرضيته وحوائطه من كتل خشبية مشقوقة ثبتت في الأرض، بينما استخدم في صناعة الجزء الأمامي أنواع مختلفة من الحصير والألياف، وربما استغل الإنسان الجزء الخلفي من المنزل فقط وخصص الجزء الأمامي كحظيرة للحيوانات ومخازن للحبوب.

2- يشمل النوع الثاني المنازل التي شيدت في مناطق المستنقعات في فيدرزي Federsee بألمانيا، حيث استخدمت الأخشاب في صناعة قواعد لها. وهي كالنوع الأول مؤلفة من جزء أمامي (حجرة) كانت تستخدم في إعداد الطعام، بينما استخدمت الحجرة الخلفية للنوم، وأمام كل منزل كان يوجد فناء ربما استخدم كمكان للجلوس أو العمل.

3- أما النوع الثالث البسيط المكون من حجرة واحدة فربما كان نموذجاً لمنزل فلاح العصر الحجري الحديث وسط أوروبا. على أي حال فمنازل العصر الحجري الحديث الخشبية التي نشأت في أوروبا لم تكن تتطلّب مقدرة فنية كبيرة بقدر ما تطلّبت أيد عاملة كثيرة، إذ كانت أهم آلات النجارة التي استخدمها الدانوبيون في بناء منازلهم هو المعول ذو المقبض الطويل. ولم تقتصر المنازل المستطيلة على محلات وسط أوروبا، بل ظهرت أيضاً في الدنمارك، إذ تمكن سكان شرق

جتلند من بناء منزلين كبيرين بلغ طول أحدهما قرابة 85 متراً وعرضه قرابة 6.5 متراً. وكانت هذه المنازل جماعية تعيش فيها مجموعة من الأسر لأن كل منزل كان يحتوي على عدد كبير من الحجرات.

وأمثلة هذه المنازل الجماعية تلك التي وجدت في قرية Skara Brae بجزر أوركني، بنتها جماعات مستقرة انحدرت مباشرة من سكان العصر الحجري الوسيط في بريطانيا. وقد بنيت هذه القرية الصغيرة بين الكثبان الرملية غير أن البيئة الرعوية المنتشرة حولها ساعدت على الاستقرار، ومن ثمة فقد عمرت لعدة أجيال. ومنازل هذه القرية كانت على شكل مربع، وجوانبها دائرية وحوائطها مبنية من الأحجار، ذات مدخل صغير جداً وباب حجري بلغ ارتفاعه قرابة أربعة أقدام، يغلق بما يشبه العصي المصنوعة من الأحجار أو عظام الماموث. وقد اشتمل كل منزل على موقد وثلاث صوامع صغيرة في وسطه، ربما استخدمت في تخزين الحبوب أو كغرف خاصة، إذ كان لكل منها مدخلها الخاص. وقد جمعت المنازل أو الأكواخ في شكل منظم حول ممرات مرصوفة. وما هو جدير بالذكر أنه قد نشأ لأول مرة في هذه المحلة نظام لصرف الفضلات تحت المباني. ولهذه الأكواخ أهمية خاصة لسببين أولهما أن هذه الأكواخ تمثل امتداد لملاءمة الإنسان لبيئته في ذلك الوقت، إذ بنيت الأكواخ في مأمن من الرياح القوية تحت مظلات، وتغلبوا على النقص في الأخشاب فاستخدموا عظام الماموث في تشييد السقف. أما الأهمية الثانية فتتلخص في استخدام الأحجار المحلية بدلاً من الأخشاب في صناعة وتأسيس الأكواخ.

وفي الواقع ولكي ندرك أهمية هذه الأكواخ لا بد أن نعرف أن الأكواخ الموجودة الآن في بيئات شمال أوروبا ويقطنها الفلاحون لا تختلف في تركيبها وشكلها اختلافاً كبيراً عن أكواخ جزر أوركني، التي يبدو أن أصحابها قد اعتمدوا في حياتهم على تربية الأغنام وزراعة القمح والشعير والذرة[1].

3- صناعة الفخار والسلال كدعامة للعصر الحجري الحديث:

إن صناعة الفخار لم تظهر وتنتشر إلا في العصر الحجري الحديث، ويبدو أن صناعة الأواني كانت إحدى ميّزات المجتمعات الحجرية الحديثة. وربما نشأت

---

[1] المرجع السابق، ص 288-291.

مصادفة بعد أن احترقت إحدى السلال المبطنة بالطين، كي تحمل الماء وتدل على ذلك قطعتان من هذه السلال وجدتا في محلة حجرية قديمة في كينيا.

فعندما تم الانقلاب الزراعي وتعلّم الإنسان فضيلة التموين وأصبح يفكر بغده، ابتكر طرائق ووسائل لحفظ الحبوب والزيوت وغيرها، فتم حينئذٍ صنع الفخار. وربما بدأ الفخار أولاً في صورة حفظ الحبوب بالطين الذي يتصلب بعد تخلصه من الرطوبة، ثم يحفظ الحبوب من التعرض للهواء. ولعل الأوعية الفخارية الأولى كانت نوعاً من السلال تحاط بعد ذلك بالطين وتترك في الهواء لتجف، ثم يحرق الوعاء وتحترق معه السلة الداخلية. ثم أضيف إلى الطين كثير من القش لكي يعطيه صلابة مؤقتة حتى يتخذ الشكل المطلوب.

على الرغم من أن كل أشكال الطين صالحة لتشكيل أوعية طينية، إلا أنها تختلف فيما بينها في مدى مساميتها وصلابتها وعدم تعرضها للعيوب والشقوق. ولهذا فإن الفخار تطور بعد تجارب كثيرة انتهت بمجموعة معارف عن الفخار.

صنع الإنسان القديم خزفه باليد وشواه على نار مكشوفة وسط أكوام القش وروث البهائم قبل أن يهتدي إلى عجلة الخزاف وإلى الفرن المغلق. فالإناء الذي تضعه في النار يحتفظ بشكله عندما يخرج ويزداد صلابة، وإن تغيَّر لونه واختلف نسيجه. وكان الفخار يجفف بالشمس قبل أن يحرق على نار مكشوفة. وكان يتم تشكيل الأواني الصغيرة باليد، أو ربما كان من السهل تبطين سلة صغيرة بمادة صلصالية، ثم إخراجها بعد أن تجف، ثم يتكون الإناء في شكل طبق معد للإحراق.

وهناك طريقة ثانية لتشكيل الفخار وذلك عن طريق إضافة حلقات متتابعة من الصلصال فوق بعضها، وكل حلقة ذات قطر معين حسب الطلب، ثم تتم عملية تسوية السطح وتنعيمه باليد أو بأداة خشبية.

وتقدمت صناعة الفخار في العصور التالية عقب ابتكار أداة لتدوير الآنية ببطء أثناء تشكيلها فوق منضدة أو قرص أفقي (عجلة) مجهزة بمحور عمودي. فسهل ذلك إنتاج آنية مستديرة متميّزة بمزيد من الأناقة وحسن التناسق، فبينما تلتف العجلة (القرص) كان من الميسور إنتاج كل الأشكال بيضوية كانت أم كروية أو أسطوانية أو مسطحة[1].

---

[1] د. محمد رياض: الإنسان، مرجع سابق، ص 357-358.

لقد استغرق الفلاحون في أريحا وجرمو فترة طويلة من الزمن قبل أن يستخدموا الفخار. إذ إن تاريخ أول قدر عثر عليها في أريحا ترجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد، على حين يرجع تاريخ المحلة إلى الألف الثامن قبل الميلاد، أي أنه يوجد فرق يصل إلى ألفي عام بين نشأة المحلة وصناعة الفخار، الأمر الذي يشير إلى أن الفخار حين ظهر في أريحا وجرمو كانت صناعته قد تعدت مرحلة التجارب[1].

أما صناعة السلال فهي كغيرها من الأشياء التي تنتمي إلى العالم القديم، ظهرت أولاً في العراق وإيران وفلسطين ومصر، ثم انتشرت بعد ذلك إلى آسيا الصغرى. وأقدم الأمثلة على هذه الصناعة تلك البقايا التي عثر عليها في أريحا وجرمو، حيث تمكن الفلاحون هناك من صناعة الحصير، وذلك باستخدام النسج البسيطة التي تتضمن عمل نسيج من قصب البوص بواسطة الحبال أو ربط البوص بعضه ببعض[2].

ولعل أول أنواع السلال المتخصصة هي تلك التي وجدت في مصر؛ فعلى شواطئ بحيرة قارون وجدت في محلات الفيوم حفر لتخزين الحبوب بطنت بسلال تختلف في شكلها وطبيعة صناعتها عن الحصير المصنوع في جرمو. فقد صنعت هذه السلال بطريقة الدوران أو اللف.

وقد صنعت سلال الفيوم من قش القمح وبلغ عرض الواحدة منها ما بين 3-4 أقدام، على حين بلغ عمقها ما يزيد على قدمين. وبالإضافة إلى هذه السلال الكبيرة عثر أيضاً في الفيوم على حصير صنع من القش، وأطباق مفلطحة كبيرة وسلة على هيئة قارب.

أما في البداري فكان البوص هو المادة الخام المفضلة في هذه الصناعة ومن ثم فقد صنع منه نوعان من الحصير؛ أحدهما يمتاز بالبساطة في الصنع، إذ وضعت حزم البوص بعضها مع بعض جنباً إلى جنب، ثم ربطت بواسطة خيطين عقداً بينهما. أما النوع الثاني فتمت صناعته بطريقة اللف وفيها يلف الخيط حول حزم البوص بحيث يمر فوق حزمتين من أعلى وثالثة من أسفل وهكذا.

---

[1] د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري: الجغرافيا التاريخية، ص 294.

[2] المرجع نفسه، ص 302.

هـذا وقـد حـافظ المصـريون علـى أشـكال السـلال الـتي ظهـرت في المحـلات الرئيسية للعصر الحجري الحديث في مصر، ولاسيما في الفيوم والبداري حتى عهد الأسرات حينما ظهرت أنواع أرقى مزينة.

4- صناعة الأواني الحجرية والخشبية والعاجية:

نجـح سـكان هـذه الفـترة في اسـتخدام الحجـارة في صـنع الأوانـي في المراحـل الأولى من العصر الحجري الحديث، كما يبدو من آثار أهل أريحا وجرمو الذين لم يتوصلوا لصناعة الأواني الفخارية في المراحل الأولى من حياتهم. كذلك عثر في خيروكيتا بقبرص على أوان دقيقة صنعت من الحجارة المصقولة، حيث استخدم في صناعتها - في بعض الأحيان - الصخور البركانية. أما في مصر حيث وجدت أوان جميلة مصنوعة من الألباستر وأنواع أخرى من الأحجار التي وجدت في عهد الأسرات نلاحظ أن البازلت قد استخدم في الأواني التي صنعها البداريون وسكان العمرة. أما في المناطق التي كان يتوفر فيها الخشب فصنعت الأواني الخشبية غير أنها كانت نادرة. فقد كان لدى سكان البحيرات السويسرية أوان خشبية ذات مقابض صنعت عن طريق نحت الأخشاب. كذلك وجدت في حضارة البداري بمصر أوان صنعت من العاج.

5- صناعة الغزل والنسيج:

الغـزل عبـارة عـن عمليـة تكـوين الخيـوط عـن طريـق شـد وبـر طويـل مـن المـادة الخام وتنظيمه في شكل متواز ثم لف هذا الوبر، والعملية الأخيرة هي أهم عمليات الغزل التي ربما عرفت قبل عملية النسيج وموورست أثناء العصر الحجري الحديث. ولا يحتاج الآثاري ليثبت وجود صناعة الغزل إلى أكثر من العثور على قرص حجري هو (فلكة المغزل) الت ي تثقل محور المغزل الخشبي الصغير. ولم تبق خيوط غزل فعلاً إلا في حالات قليلة جداً. وقد استخدم المغزل بكثرة مع بداية العصر الحجري الحديث، حيث توصل إليه عن طريق استخدام عصا يلف حولها الخيط والتي تطور استعمالها فيما بعد، فربط بها الوبر ثم لف على شكل مخروطي، وهذه الطريقة البدائية ما زالت تمارس حتى الآن. والمرحلة الثانية توصلوا إليها حينما اكتشفوا أنه من الممكن أن يسير المغزل في حركة مستديرة، وأنه من الممكن أن تزيد دورة

المغزل إذا ما ربط بفلك المغزل الذي صنع من الطين أو الحجارة على شكل مخروطي أو بيضوي.

أما عن صناعة النسيج في أبسط مظاهرها فيمكن أن تتم من دون الاستعانة بالأنوال، فالمواد الخام الخشنة يمكن أن تنسج باليد. وقد صنعت المنسوجات عن طريق مد الخيوط بين شجرة مثلاً ووسط الصانع أو الناسج.

ولعل من أقدم الأنوال البدائية التي ظهرت في البداري بمصر، نول يتكون من عمودين يوضعان أفقياً على الأرض ويربط بينهما خيوط السداة على حين كانت تعمل خيوط اللحمة بواسطة اليد.

وقد تطور النسج بعد ذلك بحيث أمكن تقسيم الخيوط الرأسية إلى قسمين أحدهما إلى أعلى، والآخر إلى أسفل لتمر بينهما بالتناوب خيوط اللحمة.

وبالإضافة إلى هذه الأنوال الأفقية ربما استخدمت أنواع أخرى رأسية ذات عمودين.

أما من ناحية المواد الخام التي استخدمت في صناعة الغزل والنسيج أثناء الثورة الإنتاجية الأولى، فقد كان الكتان والصوف هما أكثر المواد الخام المستعملة في مصر وآسيا وأوروبا في بداية العصر الحجري الحديث[1].

إن كل هذه الصناعات والحرف من زراعة الحدائق حتى النسيج لم تكن مستطاعة إلا بعد اختزان الخبرة وتطبيقها واستنتاج خبرات جديدة منها - وكلها تعتمد على العلوم التطبيقية- وبعد أن يرث الأبناء علوم الآباء وتجربتهم جيلاً بعد جيل.

وكانت تقاليد هذه الصناعات جماعية وليست فردية، فقد ساهم كل الأفراد في اكتساب الخبرة وتبادلوا المعلومات اللازمة. ونلاحظ أن أواني أية قرية من قرى العصر الحجري الحديث متشابهة تشابهاً تاماً، وأنها تحمل طابع تقليد مشترك قوي، أكثر مما تحمل الطابع الفردي، بل إن اقتصاد العصر الحجري الحديث كله ما كان له أن يظهر دون الجهد التعاوني المشترك، فأعمال تنظيف الغابة من الأحراج، أو تجفيف المستنقعات وحرثها، لا بد أنها كانت أعمالاً جماعية. وحفر القنوات والمصارف، وإقامة التحصينات حول القرية لتحميها من إغارات الوحوش

---

[1] المرجع السابق، ص 305-307.

openkandil.com

ومن الفيضانات، كانت أيضاً مسؤوليات جماعية عامة. ورغم ذلك لم يتحقق الاكتفاء الذاتي بصورة كاملة أثناء العصر الحجري الحديث. إن نقل الأصداف البحرية مسافة مئات الأميال عن الشواطئ يدل على وجود نوع من التبادل بين مجموعات مختلفة متمايزة، غير أن هذا التبادل بين مجتمعات هذا العصر كان أكثر اتساعاً وتواتراً مما كان عليه من قبل. لقد وجدت أصداف البحر المتوسط في قرى وقبور تعود للعصر الحجري الحديث في كل مناطق حوض الدانوب وإلى خلف حدوده الشمالية الفاصلة نزولاً حتى نهر الأودر والألب والراين، كما انتشرت الأصداف والأحجار النصف كريمة مثل هذا الانتشار الواسع في مناطق آسيا المتاخمة. وأكثر من ذلك، فإن صناعة الفؤوس والمطاحن اليدوية وأدوات أخرى استلزمت إحضار حجارة خاصة مناسبة لها من مناطق نائية جداً. ويبدو أن بعض المجموعات الصغيرة تخصصت في استخراج الصوان من مناجمه، أو في اقتلاع صخور معينة لصنع الأدوات منها وتزويد الأسواق بها، ونتيجة لذلك فلا بد أن عدداً قليلاً من الناس بدأ يضيف إلى موارد رزقه مورداً جديداً يتلخص بحمل هذه الأدوات وبيعها إلى مجموعات بشرية بعيدة. إن التخصص في المبادلات الداخلية وفي التجارة الخارجية بهذا المفهوم واضح تمام الوضوح في العصر الحجري الحديث، ولكن لم يكن الحجارون، ولا صانعو الفؤوس ولا الباعة الجوالون اختصاصيين متفرغين تفرغاً كاملاً لتلك الأعمال، أي إن نشاطاتهم الصناعية والتجارية لا بد أنها تضاف دائماً - مع أعمال ثانوية أخرى - إلى أعمالهم الرئيسية في الزراعة والصيد البري والبحري، ولذلك فعمال قطع الصوان، وصانعو الفؤوس والباعة الجوالون في ذلك العصر ما كان عليهم أن يعيشوا قط على الفائض الاجتماعي (وهو الغذاء الفائض عن المتطلبات البيتية الذي ينتجه المزارعون والصيادون وصيادو الأسماك) كما يفعل اليوم العمال الصناعيون، والكتبة، والحرفيون، وكثيرون غيرهم. على الرغم من ذلك فقد كان هناك فائض اجتماعي كما أسلفنا، ولكنه كان صغيراً جداً، فعن طريق قرى كشفت بأكملها على نهر الراين يتكون لدينا انطباع بأن ذلك الفائض كان موزعاً بالتساوي في بداية العصر الحجري الحديث؛ فالأرض والقطيع كانا ملكاً جماعياً لزمر كبيرة تتواصل بالقربى، وكان التعاون ضمن هذه المجموعة منتظماً جداً وكأنه ضمن أسرة واحدة، فيمكننا والحالة هذه اعتبار قرية (Skara

Brae) كبيت واحد موزع إلى سبعة مساكن تماماً كمجتمع ذي بيوت سبعة كل منها بغرفة واحدة. ولذلك لم تكن تدعو الحاجة لوجود زعيم يأمر أعضاء هذه المجموعة، وبمقدار ما يدور بحثنا هذا حول أوائل العصر الحجري الحديث، فليس أمامنا أي دليل أثري مقنع عن وجود الرئاسة فيه.

فإذا ما كانت الزراعة قد سبقت تربية القطعان وكانت ذات أهمية أكبر في وقت من الأوقات، وإذا ما كانت الحقول تحرث من قبل النساء، فإن جنس النساء لا بد أنه كان يملك اليد الطولى في احتياطي الغذاء، وعندها يمكن أن نتوقع أن هذا الجنس كان على قدر معيّن من السلطة. ويؤكد البعض هذا الادعاء عبر ملاحظة أن كل مجتمعات العصر الحجري الحديث كانت تحفر أو تنقش تماثيل صغيرة لعناصر أنثوية تمثل بها «الإلهة الأم» أو «الفتاة العذراء»، وتستخدمها في طقوس السحر والاحتفالات الدينية، ولكن ما إن حلت خاتمة ذلك العصر في أوروبا حتى بدأت تختفي هذه التماثيل الأنثوية لتحل محلها أحياناً كثيرة تماثيل القضيب، أو رموز ذكورة أخرى. وفي هذه المرحلة ذاتها عادت تربية القطعان - إضافة إلى الصيد - لتحتل مكان الصدارة في الاقتصاد الأوروبي. وبما أن الحياة الرعوية تتفق وتنظيم المجتمع على أساس أبوي، فإن اختفاء التماثيل الأنثوية في هذه المرحلة قد يعكس تقليص دور النساء ومرتبتهن.

وبما أن أسلحة الحرب أيضاً غير أدوات الصيد، فهي ليست بارزة في موجودات قبور بداية العصر الحجري الحديث، ولا في المساكن التي تعود لهذه الفترة، هذه المساكن التي كانت دونما حماية تذكر، في حين كانت قرى أواخر هذا العصر - على نقيض القرى في بدايته - مطوقة دائماً بالإجراءات الدفاعية لحمايتها. وإن الفؤوس الحجرية الحربية، والمدى الصوانية، وفيرة ضمن بقايا أواخر هذا العصر في أوروبا، مما يتفق مع الأهمية المتزايدة لتربية القطعان التي كانت دافعاً اقتصادياً يقف وراء الغزو والأعمال الحربية. وعلاوة على ذلك، فإن استمرار الأساليب القديمة في استغلال الأرض ربما كان يفضي إلى مشاحنات حادة جداً حول الأراضي الزراعية مما قضى على الموانع الخرافية السابقة في ضم أراضي الآخرين.

ومن المؤكد على أي حال وجود الإجراءات العسكرية في أوروبا في أواخر العصر الحجري الحديث، مما هيأ الفرص لبروز الرئاسة ونشوء الطبقات

الاجتماعية. ولما كان على الفرد في ظل أي نظام في العصر الحجري الحديث أن ينتج أكثر من حاجته، يجدر عندها الاحتفاظ بأسرى الحروب، كعبيد، أو تحويل جماعة بكاملها إلى مرتبة الخدم، أو إلى منزلة اجتماعية ثانوية، ولذلك فالتطورات التي طرأت في أواخر ذلك العصر لربما أدت إلى تمركز الفائض الاجتماعي في أيدي طبقة حاكمة قليلة أو مستعبدة، أو في أيدي زعماء فرديين مما فتح الطريق واسعاً أمام نظام اقتصادي جديد تحقق في عصر البرونز[1].

وليس مستغرباً أن يكون الفلاحون مسعورين كالصيادين في طقوس السحر واحتفالاته لزيادة الخصب، ولذلك فالتماثيل الأنثوية الصغيرة المذكورة سابقاً كانت ترتبط من دون أدنى شك بمثل هذه الطقوس. فالأرض التي يزرع فيها البذار، والتي تعطي القمح الجديد كل عام كانت تعتبر الأم العظمى، ولكن الأموات أيضاً دفنوا في باطن الأرض الأم، ولذلك فإن فلاحي هذا العصر أعاروا اهتماماً كبيراً لطقوس دفن أقربائهم الموتى أكثر من اهتمام الصيادين وصيادي الأسماك. ولقد كان يطوى جسد الميت عند الدفن، كوضع الجنين في الرحم، وكانت ترافقه إلى القبر عادة تجهيزات عديدة من طعام وشراب، إضافة إلى حاجاته الشخصية كأدوات الزينة والأسلحة وغير ذلك. وفي أواخر هذا العصر أقيمت في أوروبا الشمالية والغربية قبور تذكارية بنيت بمجهودات ضخمة حتى يتسنى لأموات أجيال عديدة أن ترقد فيها مع «آبائها». وتدعى روائع هذه المدافن "Megalithic" (وهي مؤلفة من كلمتين يونانيتين: mega بمعنى ضخم، وlithos بمعنى حجر) لأنها مبنية من حجارة بالغة الضخامة تزن واحدتها ستة وثمانين طناً، ولقد بنيت مقابر أخرى بالمخطط نفسه وللغرض ذاته من حجارة تراصفت بشكل خشن ومن دون بلاط ومسقوفة بشكل ناتئ مما يدل على عظمة أكبر، فضلاً إلى حاجاتها إلى جهد عضلي أقل من سابقاتها، وكانت تغطى كل هذه المقابر بركام ضخم من الحجارة التي قد يوازي عددها عدد الحجارة في أبرشية عصرية، كما كانت الطقوس والاحتفالات المهيبة ترافق كل مرحلة من مراحل بنائها. وأخيراً فإن الغرف التي كان لها الهدف ذاته لربما نحتت من الصخور حيثما توافرت.

---

[1] جوردن تشايلد: العصر الحجري الجديد، ضمن الإنسان والحضارة والمجتمع، ص 198-200.

وتنتشر المقابر الجماعية من الأنواع السابقة أكثر ما تنتشر على سواحل الأطلسي في أوروبا من جنوب إسبانيا حتى اسكتلندا شمالاً، مروراً ببحر الشمال إلى هولندا والدنمارك وجنوب السويد[1].

أصبح الإنسان صياداً في الطور الأول من تاريخ البشرية. وأوصل هذه المهارة إلى درجة الكمال في الطور الثاني من هذا التاريخ. وبهذا استطاع أن ينتج من الطعام فائضاً يزيد عن حاجته، وتوصل إلى تقسيم ابتدائي للعمل، وخطا الخطوة الأولى نحو تأسيس الحياة المستقرة. وقد أورثت مئات الأجيال المتعاقبة من الصيادين إنسان العصر الحجري الحديث تكويناً جسمياً خاصاً يظهر أثره في سلوكه تجاه الأشخاص الآخرين. ومهما تكن متطلبات الحضارة العديدة التي حوّرت سلوك الإنسان فإن هذا السلوك ما زال امتداداً لتكوينه الجسمي (الفيزيولوجي).

وعندما ترك الفلاحون والرعاة الأولون، قبل نحو ثمانية آلاف سنة، حياة الصيد، ظلوا محتفظين بهذه الأنماط الموروثة من السلوك. وكانت مشكلتهم هي تكييف أنفسهم لمتطلبات الحياة القروية. وما زال الناس في معظم أقطار العالم اليوم يواجهون هذا المشكل[2].

حضارات من العصر الحجري الحديث

ما زالت عادات المعيشة في العصر الحجري الحديث باقيةً في أوروبا والهند والصين وأمريكا الجنوبية وغيرها من الأقطار ذوات الحضارات الرفيعة. ولا يعني هذا أن سكان هذه الأقطار ما زالوا يقطعون الأشجار بفؤوس مصقولة، وإنما يعني أن حياتهم القروية ما زالت تحمل طابعاً من العصر الحجري الحديث باقياً في بنية التفكير ونسق التكوين النفسي. ولكي نجد حضارات العصر الحجري الحديث حية بكامل أحوالها وخصائصها في العصر الحاضر يتحتم علينا أن نتقصى الهجرات الأولى لمنتجي الطعام التي أوصلتهم إلى أهدافهم النهائية، وأن نرى كيف ملأ إنسان العصر الحجري الحديث الفجوات في خريطة العالم التي لم يسكنها الصيادون

---

(1) المرجع السابق، ص 201-202.

(2) Coon, op. cit., p.200.

الأولون. لقد كانت فنون العصر الحجري الحديث الصناعية على درجة عظيمة من الكمال والنشاط بحيث استطاع الناس أن يقهروا بها المناطق الجرد الباردة ويمخروا البحار المتنائية، ويصلوا إلى جزر جديدة. ونجدهم في أقاصي الأرض التي كانت مسكونة في الأزمان القديمة يعيشون في مجتمعات وممالك تتراوح في تعقدها الاجتماعي بين حياة أسهل زمرة من زمر الصيادين وبين حياة الإنكليز في أيام الملك (ألفريد). وقد أعطى الطور الثالث من أطوار التاريخ البشري، منذ البدء، الإنسان الوسائل ليكون حيواناً حضارياً مطلقاً كما هو حيوان حضاري بالطبع.

وقد بلغ حَمَلَة حضارة العصر الحجري الحديث أخيراً، بعد مضي ثلاثة آلاف سنة على السنة الأولى من تاريخ العصر الحجري الحديث، تخوم الأراضي القابلة للزراعة. وعلّموا الصيادين، في الغابات الشمالية في أوروبا وآسيا، أساليبهم في صنع الأدوات والأسلحة فأصبح بإمكانهم، منذ الآن، أن يبنوا الأكواخ ويصنعوا المزالج والمصائد المتقنة. ودجن سكان الغابات الأيائل، بدلاً من الأبقار، من أجل اللحوم والجلود والحليب وجر مزالجهم ونقل متاعهم. وانتشرت تربية الأيائل على طول الطريق الممتد من ليلاند إلى مضيق بهرنك، حيث وجد الرحالة الروس الأولون قرى يسكنها أناس يعيشون على صيد الثدييات البحرية ويقايضون مربي الأيائل، جلود الأيائل بدهن الحيتان والعاج وجلود الفقمة والفيل البحري. ويحتاج سكان المناطق البعيدة عن البحر جلود الثدييات البحرية لصنع السيور والأحذية، والعاج لصنع الآلات والأدوات. أما صيادو الثدييات البحرية فكانوا يحتاجون جلود الأيائل ليتخذوا منها ملابسهم. وقد سكن الأسكيمو سبعاً من هذه القرى الساحلية. وهم قوم نشؤوا على جانبي مضيق بهرنك، ثم انتشروا شرقاً على طول سواحل ألاسكا وكندا القطبية الجرداء إلى لابرادور وجرينلاند، في الوقت الذي قدم فيه الرحالة البيض لاكتشاف هذه المناطق. وكان الذين يسكنون منهم في جهات أمريكا يصيدون الثدييات البحرية والكاريبو (الوعل) فيحصلون بذلك على المادتين اللتين يحتاجونهما[1].

---

(1) Coon, op. cit., p.202.

1- الأسكيمو يحتلون مناطق القطب الشمالي الجرداء:

يعيش الأسكيمو قرب القطب الشمالي، ويتخذون لهم بيوتاً من الثلج، ويرتدون ملابس دافئة، ويصيدون الحيوانات التي تشبه الأيائل، ويسوقون الكلاب التي تجر الزحافات. والأسكيمو ذوو أهمية في التاريخ العالمي لأنهم أول من أوجد فيما نعلم طريقة للعيش في محيط بارد أقصى البرودة من دون أن يكون لديهم خشب للوقود، ثم سكنوا جزءاً من سطح الأرض لم يكن مأهولاً من قبل. وتمتد الغابات، في الجانب الآسيوي من القطب الشمالي، حتى تصبح قريبة من الساحل. أما في الجانب الأمريكي فإن الغابات تنمو في الداخل بعيدة عن الساحل، ومن هنا كانت أبعد من أن يصلها صيادو ثدييات البحر. وقد استطاع الأسكيمو أن يبقوا أحياء، لأنهم نقروا بآلات العصر الحجري الحديث حجر الصابون وصنعوا منه مسارج أو صنعوا المسارج من الفخار، وكانوا يضعون طعامهم في أوان من الفخار ويغلونه فوق مسارج توقد بزيت الحوت.

إن نقر الحجر، وصنع الفخار، وغلي الطعام، من الأساليب الفنية في العصر الحجري الحديث. وقد يكون الأسكيمو ابتكروا حرق زيت الحوت ابتكاراً أو اقتبسوه من سواهم. لقد ساعدتهم السكاكين الحجرية المصقولة والقُدُم على أن يفيدوا كل الإفادة مما لديهم من أخشاب قليلة، فصنعوا منها هياكل الزلاجات والزوارق، والمزالج والزوارق ذوات الهياكل الخشبية من مبتكرات العصر الحجري الحديث التي استعملت في مناطق أخرى.

على أن هذه المخترعات، والسراج الذي يوقد بدهن الحوت، ما كانت لتفيد الأسكيمو شيئاً لو لم يكن باستطاعتهم أن يصنعوا لكل شخص، صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً كان أم أنثى، بذلة واحدة في الأقل من الفراء المزدوج المخيط خياطة محكمة الإتقان. وتتألّف هذه البذلة من اثنتي عشرة قطعة رئيسية هي: باركة[1] تنتهي بقلنسوة وسراويل، وحذاءين. ويتكون كل من هذه القطع من طبقتين من الفراء مخيطتين ظهراً لظهر بحيث يغطي شعر القطعة الداخلية الجسم من الداخل، ويغطيه شعر الثانية من الخارج. وقد يكون هذا اللباس أعظم أهمية بالنسبة للحياة من السرج الزيتية. فبهذا اللباس يستطيع صيادو الكاريبو من الهنود الحمر الذين

---

[1] Parka: عباءة ذات قلنسوة ملتصقة به كالذي يلبسه العرب المغاربة، يلبس في سيبيريا وآلاسكا.

يسكنون الأراضي الجديبة ويعانون من قلة الوقود في الشتاء، أن يبقوا أحياء بغير تدفئة في بيوتهم الثلجية إذا أكلوا كمية كافية من الشحم. والسمة الجوهرية المميِّزة لهذه البذلة هي دقة خياطتها، أما الخياطون فهم النساء. ولكي تفصِّل الخياطة الفراء على قدّ كل شخص لا بد لها من سكين جيدة، وتسمى هذه السكين (يولو) بلغة الأسكيمو، وهي أداة صقيلة معقوفة، مصنوعة من حجر الأردواز تماثل سكين السّراج التي يستخدمها كل عامل جلود ماهر في العالم الغربي. وهذه السكين هي المفتاح الثاني الذي يفسّر قدرة الأسكيمو على العيش في المناطق القطبية الجرد، وتعادل أهميتها أهمية السراج الزيتي.

التكيف مع المناخ البارد:

كيف يتحمل نوع بشري واحد شروطاً طبيعية متباينة كل هذا التباين كالشروط التي تسود المناطق القطبية والمناطق الاستوائية؟ والجواب عن ذلك أن الإنسان كائن مرن يستطيع جسمه أن يقوم بعمليات فيزيولوجية معيّنة لتحمل شروط مختلفة كإفراز العرق عند اشتداد الحرارة وإسراع أو توقيف عملية الاستقلاب Metabolisme تبعاً لدرجة الحرارة، عدا عن الغدد الصماء التي تؤدي دوراً كبيراً في هذا الصدد. أضف إلى ذلك أن عقله يساعده على تكييف غذائه وملبسه ومسكنه تبعاً للظروف التي تحيط به. ويصف أندرسون الإنسان بقوله: «الإنسان مخلوق يستطيع أن يعيش في أنواع مختلفة من الشروط الطبيعية أكثر مما يستطيع أي مخلوق آخر، ويعينه في ذلك عدم تخصص جسمه من جهة وعقله الممتاز من جهة أخرى، ذلك العقل الذي يحتال بطرائق شتى ليجعل من البيئة القاسية بيئة أخرى اصطناعية تسهل فيها الحياة إلى حد كبير. ولكي يقوم الدماغ بوظيفته خير قيام يجب أن تكون بيئته الداخلية، الطبيعية منها والكيماوية، ثابتة مستقرة، فإذا هدد هذا الاستقرار الداخلي ظروف خارجية شديدة التطرف، استعان الجسم عليها بمختلف أنواع الاستجابات الفيزيولوجية الوقائية أولاً، فإذا ما استمرت تلك الظروف في تطرفها فإن الجسم يلائم نفسه معها عندئذٍ عن طريق تغيّرات أكثر بقاء واستمراراً تحدث في بقية الجسم، بل وفي فيزيولوجيته[1].

---

[1] د. صلاح الدين عمر باشا ود. أديب باغ: المدخل لدراسة الجغرافيا البشرية، جامعة دمشق 1969، ص 68-69.

تعد المناطق التي يعيش فيها الأسكيمو من أقسى مناطق العالم برودة ووعورة. وكثير من أنواع النباتات والحيوانات لا يمكنه الحياة في هذه الأصقاع الشمالية كالأسكيمو، حيث يسود شتاء طويل قارس، وصيف بارد قصير، ولا يرتفع متوسط درجات الحرارة في معظم المناطق عن حد التجمد إلا لشهرين أو ثلاثة كل عام. ويبلغ متوسط درجات الحرارة أثناء فصل الشتاء (ما بين -29 و-34 درجة مئوية). وتهب الرياح على الأراضي القطبية دون أن تعترضها أية عوائق مما يجعل من هذه المناطق أشد مناطق العالم برودة. وأثناء هبوب العواصف الشتوية تجبر الرياح القارسة والثلوج المنهمرة الناس على البقاء في منازلهم لأيام عديدة حتى تتحسن الأحوال الجوية.

تتكون أغلبية اليابسة في القطب الشمالي من سهول عديمة الأشجار، تسمى سهول التندرا، وتتجمد هذه اليابسة معظم أيام السنة، ويذوب ما يقرب من 30 إلى 60 سم، من ثلوج التندرا أثناء الصيف، ولهذا تكثر فيها السبخات والبرك والمستنقعات. كما تغطي اليابسة المروج وكميات كثيفة من النباتات البحرية والطحالب والشجيرات الصغيرة، ولكن لا يمكن أن تنمو الغابات هناك. وأهم الحيوانات التي تعيش في الشمال هي الثعالب والأرانب والذئاب والكاريبو (الرنة) وثيران المسك والدببة والفقمات والحيتان.

وبطبيعة الحال ليست البيئة متشابهة تماماً في كل منطقة قطنها الأسكيمو ولهذا السبب فقد نمت بعض الحضارات المحلية التي عكست هذه الاختلافات، وإن كان الاختلاف يتوقف أساساً على نوع الحيوان الذي يعتمد عليه الاقتصاد، فمصدر الأسكيمو المميَّز هو عجل البحر (الفقمة) الذي يصطاد في فصل الشتاء، وإن كان هناك بعض الجماعات الأقل تخصصاً في الصيد والتي لا تعتمد كثيراً في حياتها عليه.

البحث عن الغذاء:

يعد الأسكيمو أحسن مثل لشعب بدائي عرف كيف يلائم بين حياته الاقتصادية وظروف بيئته الصعبة التي لا تسمح بالزراعة ولا بنمو حياة نباتية إلا لفترة قصيرة، فهو يعتمد اعتماداً يكاد يكون كاملاً على صيد البر والبحر لا في غذائه فحسب، بل في ملبسه ومسكنه وأدواته أيضاً.

إن أهم ما يقوم به هؤلاء الأسكيمو في الشتاء صيد نوع واحد من الحيوان هو

عجل البحر. ويحتاج صيده لمهارة كبيرة وصبر عظيم، نظراً لأنه يعيش في هذا الفصل تحت طبقة سميكة من ماء البحر المتجمد ولا يمكن إصابته إلا عن طريق ثقب ضيق في الجليد. كما يستحيل صيده أثناء العواصف الثلجية أو الضباب الكثيف، فإذا ما سادت مثل هذه الأحوال عدة أيام فقد يهلك الأسكيمو جوعاً إذا لم يكونوا قد ادخروا شيئاً من صيد الصيف.

وعندما يبدأ النهار في الطول ويزداد الدفء في آذار معلناً قدوم الربيع يذوب جزء من ماء البحر المتجمد وتتكون ممرات من الماء، فيهرع الرجال لمفاجأة قطعان عجول البحر التي قد تظهر فوق الجليد طلباً للشمس والدفء. وهم في صيدهم هذا قد يتقدمون راجلين والرماح في أيديهم يغمدونها في الفريسة كلما لاحت، أو قد يلجؤون إلى قوارب من الجليد Kayaks يتعقبون بها العجول وغيرها من الثدييات البحرية.

وقد كانت تلك الفترة فيما مضى هي موسم صيد ثور المسك Muskox (ثور ذو شعر طويل وأملس). ولكنه كاد ينقرض الآن ولم يصبح لصيده ذكر. أما الدب القطبي فلا زال يقع فريسة عندما يأتي إلى الساحل بحثاً عن صغار عجول البحر[1].

وما إن يحل الصيف (ويطلق عليه فصل السعادة) ويذوب الجليد وتظهر النباتات القطبية حتى يعطي الأسكيمو ظهرهم للبحر متجهين نحو الداخل بحثاً وراء الكاريبو وغيره من الحيوانات (كالذئاب والأرانب القطبية) والطيور والأسماك. ويستخدم الصيادون القوس والسهام، كما يقومون بمطاردة جماعية للقطعان إلى واد صغير مغلق أو بحيرة أو مستنقع لتسهل عملية صيدها. وإضافة إلى ذلك يصطاد الأسكيمو الذئاب والثعالب والأرانب عن طريق الأفخاخ ويصطادون أيضاً البط والإوز والطيور البيضاء الكبيرة التي تتجمع في الصيف. كما يعتبر الكلب من أهم الوسائل المستخدمة في حياة الأسكيمو (لجر الزحافات والحماية والصيد). ويعمد الصيادون عادة عند صيد الكاريبو إلى مطاردة القطيع حتى يهبط في نهر أو بحيرة ثم تعمل فيه الحراب. وتصاد الذئاب والأرانب بالأفخاخ والحبائل، بينما تصاد الطيور بالشباك وبالحراب الخفيفة.

ويعطي الأسكيمو لصيد السمك من الأنهار والبحيرات أهمية خاصة لأنه

---

[1] الموسوعة العربية العالمية: المملكة العربية السعودية، الجزء الأول، الرياض، ص 31-32.

يمدهم بجزء كبير من غذائهم وغذاء كلابهم، يستخدمون في صيده الحراب ذات الأسنان الثلاث والشباك والشصوص من العظم، وقد يجدون أنه من السهل إمساكه باليد بعد حجزه بين سدود بسيطة تقام على مجاري الأنهار.

وتخرج النساء في هذا الفصل لجمع أنواع من الثمار البرية والجذور الصالحة للغذاء، ولكن الكميات التي يجمعنها قليلة لا تجدي. على أن صيد الصيف لا يستهلك كله، إذ تخزن منه كميات كبيرة في مخابئ تحت الأرض، وفي شهر سبتمبر/ أيلول يعود الصيادون إلى الساحل ويقضون الخريف في احتفالات وراحة حتى يحل موسم الشتاء موسم صيد العجول البحرية[1].

عاش الأسكيمو على لحوم الحيتان والكاريبو, وكانوا يأكلون أيضاً السمك، ولحوم الطيور، وثيران المسك والدببة والتوت والجذور والسيقان وأجزاء أخرى من نباتات معيّنة. وكانوا يجدون مثل هذه الأطعمة أثناء الأشهر الأكثر دفئاً فقط ولكن بكميات قليلة.

وفي معظم الأوقات كان الأسكيمو يأكلون اللحم نيئاً وذلك لقلة وجود الأخشاب أو عدمها، أو أي وقود آخر لإشعال النار. وكانوا في بعض الأحيان يطبخون اللحم على المصابيح التي تشتعل بالزيت الذي يستمدونه من شحوم الفقمات أو ثدييات البحر الأخرى. وكان الأسكيمو يأكلون عدة وجبات صغيرة في اليوم عادة. وإضافة إلى لحوم الفقمات والكاريبو فإن من بين وجباتهم المفضَّلة كبد الفظ (Walrus) الشبيه بالفقمة وجلود الحيتان. ويفضل الأسكيمو أكل محتويات معدة الكاريبو التي لم تهضم بعد، كما كانوا يشربون حساء مصنوعاً من خليط الماء الحار ودماء الفقمات.

وكان الأسكيمو يصنعون المصابيح وأواني الطهي من الصخر الناعم الذي يطلق عليه (الحجر الصابوني). كما استخدموا أطباقاً خشبية ومغارف مصنوعة من العظام، وأكواباً للشرب مصنوعة من قرون ثيران المسك، واستخدمت النسوة في أعمالهم المنزلية سكاكين هلالية الشكل تسمى (أولو)، وكانت هذه السكاكين تصنع من مواد عديدة.

---

[1] د. عبد الفتاح وهيبة: جغرافية الإنسان، منشأة المعارف - الإسكندرية 1983، ص 270-277.

ويشير فرانس بواز إلى المجاعات التي تحدث في بلاد الأسكيمو من حين لآخر. وهو يرى أن المجاعات لا تحدث هناك نتيجة لنقص الحيوانات بالمنطقة، ولكنها تحدث لاستحالة وصول الأهالي إليها في بعض الأحيان، بسبب سوء الأحوال الجوية أو بسبب ظروف اجتماعية قد تطرأ هناك في ذلك الحين. فالعواصف الشديدة التي تهب في فصل الشتاء تمنع الأهالي من الخروج للصيد فترة من الزمن.

وأثناء تلك الفترة تعتمد الأسر على المخزون لديها من اللحم والدهن. فإذا طالت فترة العاصفة، فإنهم يضطرون إلى ذبح الكلاب الواحد بعد الآخر لأكل لحومها. وإذا توفي أحد أفراد الجماعة في ذلك الوقت، فإن المجاعة سوف تستمر، ذلك أن تقاليدهم تمنعهم من القيام بأي عمل أثناء فترة الحداد.

وعلى العموم فمعظم الأسر عند الأسكيمو لا تتعرض للمجاعة ما دامت عائلات أخرى لديها الطعام، إذ إن أي شخص غريب جائع يمكنه أن يتقدم ويأكل من اللحوم الموجودة لدى شخص آخر... وحتى في الأوقات التي يتوافر فيها الطعام فالصياد الماهر يوزع فريسته على الرغم من احتفاظه لنفسه ببعض أجزاء من الفريسة. والمسألة هنا ليست كرم أو عكسه بقدر ما يتعلق ذلك بالحياة والموت، لأن الصياد الذي ينجح باصطياد فريسته قد يفشل مرة ثانية، ولهذا فالمشاركة تعتبر الوسيلة الوحيدة لتوزيع الغذاء لأنه لا يوجد سوق أو أي نوع من التجارة للحصول على الطعام.

المسكن:

كان لدى معظم أسر الأسكيمو بيت صيفي وآخر شتوي، ففي فصل الصيف كان معظمهم يعيش داخل خيام مصنوعة من جلد الفقمة أو جلد الكاريبو. أما أثناء أشهر الشتاء فكانوا في معظم المناطق يعيشون في بيت من الطمي. وكان بعض الأسكيمو يبنون بيوتاً من الثلج على شكل القبة تكون ملاجئ مؤقتة يستخدمونها في أثناء ترحالهم. أما الأسكيمو الذين اتخذوا من بيوت الثلج هذه منازل شتوية دائمة لهم فهم أسكيمو وسط كندا وجزر كندا الشمالية فقط.

كان الأسكيمو يبنون بيوتهم من الثلج الذي تجلبه الرياح ويجعله الصقيع صلداً. وكانوا يستخدمون سكيناً طويلة مصنوعة من العظم في قطع كتل من الثلج تتراوح أبعادها ما بين 90 سم طولاً و45 سم عرضاً ومن 10-15 سم سمكاً. وكانوا

يرصون الكتل في صف دائري متصل، يدور صاعداً في دوائر تصغر مع ارتفاع البناء حتى يأخذ المنزل شكل القبة. حينئذ كانوا يحدثون فتحة في الحائط إلى الخارج وكان بإمكان أحدهم أن يصنع مثل هذا البيت أثناء ساعتين. وكان الأسكيمو عادة يبنون بيوتاً من الثلج لتكون ملاجئ مؤقتة. أما معظم الأسكيمو الذين اتخذوا من بيوت الثلج منازل شتوية دائمة فقد بنوا أشكالاً أكثر دقة، حيث أضافوا غرفاً إلى بيوت الثلج وجعلوا لهذه البيوت مداخل تشبه الأنفاق. وأحياناً تعيش إحدى أسر الأسكيمو أو مجموعة من الأسر في سلسلة من بيوت الثلج المتصلة ببعضها والتي لها مدخل مشترك. ويتكون مدخل كثير من بيوت الثلج من حجرة تخزين، أو حجرتين تبنيان فوق نفق في الثلج. وكان الأسكيمو يجعلون أرضية المداخل أقل مستوى من أرضية منزل الثلج. ويصبح الهواء البارد أكثر دفئاً بعد عبوره هذا الممر، ثم يصعد حينئذٍ إلى المنزل ليوفر درجة حرارة مريحة لساكني المنزل. أما خروج الهواء فيكون من فتحة صغيرة توجد في السقف.

وتوجد في بيوت الثلج المستخدمة كمنازل شتوية دائمة عدة منصات من الثلج تبنى بطول الجدار الداخلي وتوضع عليها المصابيح وأوعية الطعام والمتعلقات الأخرى، وفي الجزء الخلفي من المنزل منصة كبيرة تغطى بجلود الحيوانات وتستخدم سريراً ومجلساً للأسرة كلها.

وكان الأسكيمو يدفئون وينيرون بيوت الثلج بمصابيح مصنوعة من الحجر الناعم، وكانت هذه الأحجار تستخدم في الطهي والتدفئة. وكانت بيوت الثلج تبدو أكثر دفئاً من الخارج لأنها كانت تقي الأسكيمو من الرياح، وينام أفراد الأسرة على فراش من جلد الرنة. وعندما تصبح أشعة الشمس دافئة (صيفاً) يذوب سقف المنزل وينهار، وتنتقل الأسرة في هذه الفترة لتعيش في خيام مصنوعة من جلد الفقمة.

وأحياناً كان الأسكيمو يقومون ببناء بيوت من الأعشاب يستخدمونها لعدة مواسم شتوية. وهذه المنازل المصنوعة من الأعشاب تكون أرضيتها ترابية وتقل عن مستوى الأرض بما يقرب من 30- 60 سم، وتُبنى الجدران والأسقف من عظام الحيتان والأحجار والخشب المغطى بالعشب. وهناك منصة كبيرة مصنوعة من العشب تستخدم للجلوس والنوم، كما توجد بها عدة منصات أخرى ولكنها أصغر حجماً تستخدم كمناضد.

وسائل الانتقال:

انتقل الأسكيمو على الجليد والثلوج والماء، كما كانوا ينتقلون على الأرض. وقد استخدموا الزلاجات التي تجرها الكلاب في التنقل على الثلج والجليد، وقد أبحروا في الأنهار والبحيرات والبحار في قوارب غلفت بجلود الحيوان، وتنقلوا صيفاً سيراً على الأقدام. وقد استخدم الأسكيمو نوعين من الزلاجات: الزلاجات المصنوعة من ألواح الخشب، والزلاجات ذات الهياكل الخشبية. وكانت الزلاجات المصنوعة من ألواح الخشب والمستخدمة في كل من كندا وغرينلاند تشبه السلم الطويل، وتتكون من قطعتين طويلتين تفصل بينهما سلسلة من القطع الخشبية والمستخدمة في كل من ألاسكا وسيبيريا، فكانت هياكلها تشبه السلسلة وتميل إلى أعلى من الأمام وتأخذ في الانحدار حتى مؤخرة الزلاجة.

وكانت كل الزلاجات ذات الهياكل الخشبية تصنع من الخشب، وإذا لم يتوافر الخشب لديهم، كانوا يصنعون هذه الزلاجات من مواد مثل عظام فك الحوت أو جلد الحيوانات المتجمدة، وأيضاً من اللحم المتجمد.

يقوم الأسكيمو بربط كلابهم في الزلاجة بواسطة العقد المروحية، حيث يربط كل كلب في الزلاجة بخيط منفصل بحيث تبدو فرقة الكلاب وهي تقوم بسحب الزلاجة. أما الأسكيمو في كل من آلاسكا وسيبيريا فيقومون بربط الكلاب في الزلاجة أزواجاً في صف واحد وفي خيط واحد، ويحتفظ الأسكيمو أيضاً بعدد من الكلاب، بحيث يمكنهم تغذيتها. ولذا نجد أن المناطق التي يندر فيها الصيد لا يستطيع الأسكيمو إطعام أكثر من كلب أو كلبين، بينما نجد أن الأسكيمو الذين يعيشون في المنطقة الواقعة شرق كندا يمكنهم إطعام عشرة كلاب أو أكثر حيث يتوافر الصيد في مثل هذه المناطق. وكان لدى الأسكيمو نوعان من القوارب وهما الكاياك والأومياك.

يعتبر الكاياك وسيلة مهمة للانتقال وللصيد لأسكيمو الساحل في فصل الصيف، وهذا القارب الذي لا يزيد حجمه عن قوارب الكانو (وهو زورق طويل ضيق) يعتبر من القوارب البحرية التي اخترعت، فقد صنع إطاره أو هيكله من عظام الحيتان ويبطن كله بالجلود ولم يترك فتحة سوى تلك التي يجلس فيها راكب القارب. وما إن يجلس بها وهو يرتدي معطفاً من الجلد ويثبت في القارب حتى يصبح جزءاً منه.

أما الأومياك Umiak فهو أكبر حجماً من الكاياك كما أن سطحه مفتوح وذلك على النقيض من قارب الكاياك، ويستخدم عادة كوسيلة لنقل السلع والأشخاص أكثر من استخدامه في الصيد[1].

الحياة الاجتماعية:

مجتمع الأسكيمو بسيط كأبسط ما تكون المجتمعات في العالم، بل هو أبسط من معظم المجتمعات التي تعيش على جمع القوت وتستعمل الأدوات الصوانية. وبساطته هي نتيجة فعالية عدد من الأشخاص يعملون معاً، ونتيجة صراعهم من أجل البقاء. وليس بين الأسكيمو تقسيم للعمل سوى ذلك التقسيم القائم بين الجنسين، ولا نظام معقد يحدد صلة القرابة بين شخص وشخص، ولا تقسيم للأشخاص بحسب أعمارهم، ولا تنظيمات سياسية شكلية[2].

إن الناس هناك بحاجة دائمة إلى أكثر من معيل واحد لحمايتهم من الجوع والبرد والوحدة بسبب الأسفار والرحلات والجوع الذي قد تتعرض الأسرة بكاملها له إذا فشل صياد واحد أو جُرِحَ أو مرض أو مات. ولذا نجدهم يعيشون في مجموعات تضم كل مجموعة ما يزيد عن عشر أسر أو عشرين - لا يزيد عدد أفرادها عن مئة شخص إلا نادراً - ويدعون أنفسهم بأهل (مكان كذا) ولكنهم لا يعيشون معاً دائماً، لأن الطعام الكافي والصيد المناسب لا يتوافران لهم جميعاً إلا في بعض فصول السنة. أما في الأوقات الأخرى فإنهم يتوزعون ويتفرقون. وتتغيَّر هذه المجموعات من عام إلى عام حين يرحل بعضهم إلى مكان آخر بينما ينضم أشخاص جدد إلى المجموعة. وفي كل مجموعة نجد صياداً حظه في الصيد خير من حظ صيادي المجموعة جميعاً - وهذا ما يقوله الناس هناك - وما دام هذا الصياد محظوظاً فإن الناس يعتمدون عليه ويأخذون بنصحه وبآرائه عن موعد بدء الصيد أو التنقل، ولا يوجد هناك رؤساء بأي معنى، وإنما هنالك رجال أقوياء ورجال أكثر قوة ورجال ضعفاء، وهناك صيادون محظوظون وصيادون سيئو الحظ[3].

وعندما يشكو أي شخص من ألم في بعض أجزاء جسده فيستدعي في هذه

---

[1] الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ص 37-38.

[2] Coon, op. cit., p.212.

[3] مارغريت ميد: الشعوب والبلدان، ترجمة: غادة السمان، مكتبة أطلس - دمشق 1979، ص 84-85.

الحالة، الشامان (أو الرجل الطبيب) لتشخيص حالة المرض من أجل القيام بمحاولة طرد الروح الشريرة التي سببت الألم، ويتم ذلك لاعتقاد الأسكيمو بمقدرته على القيام بذلك. ويعتقد الأسكيمو بأن الشامان يستطيع تحسين الطقس ومعرفة سبب المرض، أو الدعاء لتامين وفرة الصيد ...إلخ. وفي حالة الوفاة يتخلص الأسكيمو بسرعة من الجثة وذلك خوفاً من الأشباح فيلبسون الميت أفضل ثيابه، ثم يوضع في كيس من جلد عجل البحر، وبعدها يدفن تحت كومة من الحجارة مع ممتلكاته الخاصة. ويخاف الأسكيمو من ظهور شبح الميت أثناء الأيام الخمسة الأولى للوفاة، ويعتقدون أن الأشباح قد تختفي بعد ذلك، في العالم الآخر. أما الحياة الآخرة فلا يعتقدون بها إطلاقاً، بينما نظرتهم للمرض أنه نتيجة للقوى الطبيعية الخارقة، ويعتقدون أن الأرواح قد تسلب من جسد المريض وعندها يكون قد شفي تماماً[1].

ويعتقد الأسكيمو أن كل مظاهر الكون حتى الصخور والأحجار تتملكها الأرواح، كما أن للحيوانات أرواحاً مثل الإنسان، ويعتقدون بفاعلية الأحجبة (جمع حجاب)، ويؤمنون بالأرواح وآلهة البحر.

2- جزر هوائي جنة العصر الحجري الحديث:

على الرغم من أن الأسكيمو يملكون أدوات العصر الحجري الحديث، والكلاب التي تجر المزالج، والزوارق الشراعية، فقد عاشوا ضمن حدود نظام اجتماعي ساذج. أما البولينيزيون الذين كانوا يملكون أدوات العصر الحجري الحديث والكلاب والزوارق الشراعية كذلك، فقد أنشؤوا، على العكس من الأسكيمو، نظاماً اجتماعياً معقداً، لأن الطعام كان موفوراً، والجماعات التي كانت تسكن الجزيرة الواحدة كبيرة وقريبة من بعضها البعض، ولأن المناخ كان دافئاً.

تقع جزر هوائي في أقصى شمال شرق المحيط الهادي، وفي زمن من أزمان الماضي غير السحيق، أبحر أجداد هؤلاء البولينيزيين إلى جزرهم في سفن كبيرة مزدوجة، اتخذوها من جذوع الأشجار المحفورة بأدوات العصر الحجري الحديث. أما الطريق، أو الطرق، التي سلكها أجداد البولينيزيين ليبحروا إلى جزرهم فهي غير

---

[1] علي وهب: الجغرافيا البشرية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت 1986، ص 187-188.

معروفة. ويذهب الرأي التقليدي إلى أنهم أبحروا من إندونيسيا، عن طريق ميكرونيزيا، إلى نقطة تجمّع في وسط بولينيزيا أي في جزر ساموا وتاهيتي وتونكا، ثم تفرقوا. فمنهم من أبحر شمالاً إلى جزائر هوائي، ومنهم من سار شرقاً إلى جزر الماركيز وإيستر، ومنهم من أبحر إلى الجنوب الغربي من نيوزيلندا.

استوعبت جزر بولينيزيا، على الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصل بينها، حضارة تكاد تكون متجانسة في كل مكان مع فروق طفيفة، أملْتها الظروف الطبيعية. ومن أشهر جزر هذه الأرخبيلات جزر سوسايتي (تاهيتي) وساموا وتونكا وتوابعها.

ويعيش الناس في كل واحدة من الجزر الكبيرة أو في مجموعات الجزر الصغيرة المتقاربة، في مجموعات من الأسر تضم الواحدة منها بين العشرين والأربعين شخصاً، يسكنون في أكواخ مقامة وسط بساتين واسعة، حيث ينتج أقل الجهود الحدّ الأقصى من الطعام. وتؤلّف البطاطا والنار واليام وثمرة الخبز والموز وجوز الهند قوام طعامهم. وتزودهم أشجار التوت بأحسن أنواع اللحاء لصنع الطابا. وتزودهم الخنازير والكلاب والدجاج بطعام الأعياد والقرابين. وقد وجدوا مصدراً غنياً من مصادر البروتين في السمك الذي يصيده سكان الجزر بالفالات والشباك من المستنقعات أو في عرض البحر، وفي السلاحف والدلافين والحيتان التي يقذف بها البحر إلى الشواطئ. وعلى الرغم من وجود كميات وافرة من الطعام تفيض عن الحاجة، إلا أن عدد الناس الذين تستطيع كل جزيرة أن تستوعبهم محدود. ويبقي المجتمع عدد سكانه منخفضاً بممارسته أساليب ضبط النسل، بما فيها الإجهاض، وبالحرب وبالقرابين البشرية، وبعادة أكل لحوم البشر التي تمارسها بعض الجزر، وليس جميعها. وفي الأزمان القديمة، أثناء فترة الاستكشاف والاستيطان، كانت الهجرة بطبيعة الحال من أسباب هبوط عدد السكان.

وعندما وصل كابتن كوك إلى جزيرة هوائي وجد القرى التي تحيط بالبركان المركزي قد توحّدت في مملكة واحدة حيث استطاع الملك (كاميهاميها الأول) سنة 1795 أن يجمعهم تحت راية حكم واحد. ونحن نعرف تفاصيل البناء الاجتماعي لمملكته قبل أن يقوم بفتوحه وبعدها. ومعظم الظن أن ذلك المجتمع كان أشد تعقيداً من أي مجتمع آخر من مجتمعات العصر الحجري الحديث. وقد ظل

قائماً إلى عصرنا الحاضر، حيث استطاع المثقفون العصريون أن يشاهدوه ويصفوه. وهذا المجتمع يستحق الدراسة لأن لدينا عنه مما ليس لدينا عن أي نظام اجتماعي في العصر الحجري الحديث في أي مكان آخر. ونستطيع أن ندرك، من التفاصيل التي لدينا عن مؤسساته، مبلغ التعقيد الذي بلغته مجتمعات العصر الحجري الحديث قبل خمسة آلاف سنة، وعظم مهارة الناس الذين استعملوا أساليب العصر الحجري الحديث الصناعية في ظروف ملائمة فحولوا الطاقة إلى بناء اجتماعي.

وقد لاحظ المراقبون الأوروبيون الأول أن سكان هوائي كانوا منقسمين إلى طبقات ثلاث هي: طبقة الأشراف، وطبقة العوام، وطبقة العبيد. وكان لكل طبقة واجباتها الخاصة، وامتيازاتها، وشاراتها. ويمكن أن يميّز الأشراف أيضاً بأجسامهم، فقد كانوا أضخم أجساماً من أبناء الطبقات الأُخر وأصفى ألواناً، وذلك ناجم، بلا ريب، عن اختلاف الأغذية وعن الاحتماء من الشمس. ويصدق هذا القول على طبقة الأشراف في كل مكان بما في ذلك أوروبا وجزيرة العرب[1].

وكانت الأنساب عند سكان جزر هوائي، كما هي في جميع البلاد التي يتميّز فيها الناس بالمراتب الاجتماعية مهمة غاية الأهمية. ويستطيع أي شخص نال شيئاً من علو المنزلة والأهمية في المجتمع أن يرقى بنسبه من جهة أمه أو من جهة أبيه أو منهما معاً، إلى الزمن الذي سكنت فيه الجزر، أي قبل أربعة وعشرين جيلاً، ثم يُوْصَلُ نسبه بالآلهة. ويرجع النسب النموذجي من جهة الأب، إلى بضعة أجيال ثم ينتقل إلى ذكر والدة أحد الأجداد التي كان والدها أحط نسباً من زوجته. وأما الملك فكان شخصاً جميع أجداده رفيعو المقام مهمون غاية الأهمية. ولأجل أن تحافظ الأسرة المالكة على هذا الامتياز كان الملك الشاب يتزوج أخته. وبعد أن ينجب الملك وريثاً للعرش يستطيع كل منهما أن يتزوج ممن يشاء، وهذا ما كانا يفعلانه عادة.

وكان بعض الأشراف حكاماً لمقاطعات قصية، وبعضهم جنوداً وكهاناً، ورجال حاشية. وكانوا يسكنون جميعاً داخل قصر الملك أو قريباً منه. وكان أحد الندماء يشرف على خزانة الثياب الملكية، وآخر يشرف على طعام الملك، وآخر يشرف على المائدة الملكية. وكان من هؤلاء الندماء شعراء وراقصون محترفون، وكانت وظيفة العالم بالأنساب من أهم الوظائف، وكان النسَّاب وغيره من الندماء

---

[1] Coon, op. cit., 216-222.

من ذوي الذاكرة القوية يقومون على خدمة الملك في اجتماعات مجلس الأشراف، وفي مثل هذه المناسبات يقف حارسان خارج البلاط، وعندما يطلب أحد الأشخاص الإذن بالدخول ينادي أحد الحارسين باسمه، ثم يتحداه المجتمعون من الداخل طالبين منه أن يخبرهم عن أجداده الذين تحدر من أصلابهم. وبعد أن يذكر عشرة من أجداده لأبيه، وبعد أن يشهد النسَّابة على صحة هذا النسب، يسمح له بالدخول. ويطلب من الشخص التالي أن يعدد عشرة من أجداده لأمه. وهكذا دواليك حتى يأخذ الجميع مجالسهم.

ويعيش رجال الحاشية على ما يتناولونه من المخزن الملكي الذي يملأ بالهدايا والضرائب التي تقدم أطعمة وثياباً، وكان الملك يملك، بالإضافة إلى ما تقدم، جميع الحيتان والثدييات البحرية التي يقذفها البحر إلى الشاطئ، وجميع ما يوجد على حطام السفن من حديد. وكان سكان جزر هوائي يستعملون هذا المعدن، حيث يطرقونه طرقاً بارداً ويصنعون منه الأزاميل والأسلحة.

وكان الرجال من عامة الشعب يمارسون حرفاً معينة كانت، إلى حد ما، وراثية. وكان أكثر الرجال فلاحين وصيادي سمك، وكان القليل منهم يشتغل في الصنائع. وكان صناع الفؤوس، وهم جماعة رفيعة القدر عالية المنزلة الاجتماعية، يؤلّفون القاعدة التي يقوم عليها الهرم الصناعي. أما النجارون، الذين يشترون هذه الفؤوس، فكانوا ينقسمون إلى طوائف عديدة أهمها: صناع السفن، وبناؤو البيوت، وحاكة الطابا. وكان بينهم أيضاً عدد من صناع الألياف بمن فيهم صناع الشباك. وكان هؤلاء الحرفيون يبيعون الفلاحين وصيادي السمك بضائعهم بطريقة المقايضة السهلة، ولم تكن ثمة تجارة بين جزيرة وأخرى، لأن كل جزيرة كانت لها من اتساع الرقعة وتعدد الموارد ما يكفي حاجة سكانها، فقد كانت تنتج كل ما يحتاجونه. ولا يعرف غير الشيء القليل عن الطبقة الدنيا التي تسمى طبقة العبيد. وكان أبناء هذه الطبقة، وهم قليلو العدد، يوشمون على جباههم وحول أعينهم. ولم يسمح لهم، مثل طبقة المنبوذين في الهند واليابان، أن يدخلوا بيوت أبناء الطبقات العليا.

وكان مسكن كل أسرة يشتمل على خمس دور تتألّف الواحدة منها من غرفة واحدة. وهذه الغرف الخمس هي: غرفة الزواج، وغرفة طعام الرجال، وغرفة طعام النساء، وغرفة صنع الطابا، وغرفة أصنام الزوج. وهناك محلان منفصلان في

ظاهر هذه الدور يعد في أحدهما طعام الزوج، وفي الآخر طعام الزوجة. ويحرم على الزوجة أن تدخل بيت طعام الزوج، أو حرمه المقدس، وعقوبة من يخالف وينتهك هذا التحريم هي الموت. وتقضي الزوجة فترة الحيض في كوخ سادس خاص بها، وهو المكان الوحيد الذي تتمتع فيه بعزلة تامة لا يستطيع أن يقتحمها أي رجل لأن عقوبة ذلك الموت.

وتعتبر قائمة آلهة هوائي، ذكوراً وإناثاً، وسائر الأرواح الصغرى مواطن القلق في حياة السكان. فالإله كين، رب الأرباب الخالق، يرمز إلى العلاقات القائمة بين جميع أبناء الشعب، ومن هنا كان إله الملوك الخاص. ويمثل الإله كو الحرب، ومن ثمة فهو يرمز إلى العلاقات القائمة بين الممالك. ولونكو هو إله الزراعة ومصدر الطعام. ومن ثمة فهو المسؤول عن الأزمات التي قد تنشأ إذا ما تعطلت الزراعة بسبب الجفاف أو الأعاصير أو الحرب. ويرمز الإله الرابع (كانالو) إلى عبادة الأجداد، ولما كانت عبادة الأجداد وشرب الكافا من الفعاليات الشريفة فقد عبد الإله كانالو.

ويعبد النجارون ثمانية آلهة ذكوراً وإلهة واحدة. وترمز هذه الإلهة إلى التخصص القائم ضمن صناعة النجارة. ويعبد صيادو السمك إلهاً عظيماً واحداً وعدداً كبيراً من الآلهة الصغار، ويرمز كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي هذه المهنة. ويسري هذا المبدأ نفسه على جميع الصناعات والمهن. وإذا عددنا هذه الآلهة جميعاً أصبح لدينا مخطط لتقسيم العمل في مجتمع هوائي، وهو مجتمع معقد تعقيداً شديداً.

ويحفظ كل فرد من أبناء الشعب أصنامه الشخصية في حرمه الخصوصي اعتقاداً منه أن هذه الأصنام هي المساكن التي تأوي إليها آلهته، أو هي، في أقل تقدير، المواقع الحساسة التي ترتفع بها صلواته ودعواته إلى مساكن الآلهة في السماء. ويعبد المرء هذه الآلهة سراً، ويصلّي لها جهراً، ويقدم لها قرابين من الطعام. أما الملوك والأشراف فيصلّون في المعابد، ويتلو الكهان الصلوات والأدعية بالنيابة عنهم. ويؤدي الكهان أيضاً الطقوس العامة، بما فيها تقديم القرابين البشرية على مذابح مرتفعة في الحوش المقدس الواقع بالقرب من القصر. وترمز مجاورة القصر للمعبد إلى القوتين الشقيقتين اللتين تحفظان الأمن والاستقرار في الجزر، وهاتان القوتان هما: الحكومة والشعائر الدينية.

وقد تطور الكهنوت في العصر الحجري الحديث، كما يتمثل في مراتب

الكهان في جزر هوائي، تطوراً كبيراً عما كان عليه الشامان الساذج في الحضارات التي كانت تقوم على الصيد. فقد انقسم الكهان إلى أربع فرق تخصصت كل فرقة في خدمة إله واحد من الآلهة الأربعة العظام. وينقسم الكهان في كل فرقة إلى جماعات تختص كل جماعة بعمل معيّن من أعمال العبادة. فقد اختص بعضهم بإقامة الصلاة، واختص بعضهم بتقديم القرابين والنذور، ويقوم بعضهم الآخر بدور الوسطاء بين الآلهة والناس. فهم يفسّرون الهاتف الإلهي، ويعبرون عن مشيئة الآلهة. وثمة كهان من طبقة أخرى يتلون، في مناسبات معيّنة، الأساطير الطوال المعقدة التي تعدد مآثر أجدادهم واحداً واحداً حتى تصل إلى أيام الخليقة الأولى. وتخدم هذه الأساطير الهدف نفسه الذي تخدمه الكتب المقدسة في الحضارات التي تعرف القراءة والكتابة، فهي تعدد مآثر الآلهة والملوك الأولين، ومآثر الكهان الذين أموا الشعب في العبادة في الماضي السحيق.

وكان أبناء الشعب يؤمنون بأن الملك شخص خارق القوة، فكانوا يعظمونه تعظيماً شديداً. وإذا خرج الملك من قصره أجبر جميع أبناء الشعب على السجود أمامه وإلا كان جزاؤهم الموت العاجل. ولا يستطيع أي شخص أن يجلس في مجلس أرفع من مجلس الملك.

وخلاصة القول إن الحضارة البولينيزية، كما تتمثل في حضارة جزر هوائي، كانت تلائم الإقليم الاستوائي الغني. وقد عاش سكان هوائي عيشة رخية، وازدادوا عدداً، بفضل ما كانوا يملكونه من أدوات حجرية مصقولة جيدة، ومن عدد كبير من النباتات المزروعة، وثلاثة حيوانات تؤكل لحومها، وسفن شراعية جيدة، وكميات وافرة من السمك. وكان نظام التحريم، الذي قد يكون في الأوقات الاعتيادية ثقيلاً متعباً وغير ضروري، يحفظ النظام ويبعد الرعب عن جمهور الناس إبان الأزمات. وعندما تثور زوبعة هوجاء وتدمر أشجار جوز الهند ولا تبقي منها إلا قليلاً، فالملك هو الذي يُقَدّر من يأكل ما بقي من هذه الثمار من أبناء شعبه ومن يموت جوعاً. وإذا هاجم الجزيرة غزاة من أبناء جزيرة أخرى فالملك هو الذي يقود شعبه بنفسه إلى القتال بنظام محكم وضبط شديد ويضع على رأسه غطاءً برّاقاً مزيناً برياش صفر وحمر. لقد ساعد نظام الحرام والحلال على حفظ النظام والاستقرار في أية أزمة كان البولينيزيون يتوقعون حدوثها. وعندما جاءهم الناس

البيض، قادمين من البحر على سفن ضخمة ذوات أشرعة مربعة ومدافع وبنادق، انفرط عقد نظامهم، كما كان سينهار نظامنا لو أن الصحون الطائرة كانت حقيقية. أما بعد: فإن المعلومات العصرية الحية الجلية عن الحضارة البولينيزية كما كانت في زمن الكابتن كوك (مكتشف الجزيرة) تساعدنا على أن نعرف مبلغ الغنى العظيم الذي تستطيع حضارة العصر الحجري الحديث أن تصل إليه[1].

obeikandl.com

(1) Op. cit., pp.224-229.